الليالي البيضاء

١٨٤٨

« الليالى البيضاء » (Belyia notchi)
كتبت سنة ١٨٤٧ ، ونشرت فى مجلة
« حوليات الوطن » ، فى شهر تشرين
الثانى (نوفمبر) سنة ١٨٤٨ ٠

الليلة الأولى



الليلة جميلة ، جميلة جمالا لا نراه الا حين نكون في ريعان الشباب أيها القراء الاحبة ! السماء تتلألأ فيها النجوم ، وهي تبلغ من الصفاء أن المرء يتساءل بالرغم منه حين ينظر اليها : « هل يمكن تحت مثل هذه السماء أن يعيش أناس يملأ قلوبهم البغض وتعبث بنفوسهم النزوات ؟ » السؤال ساذج ، ساذج جداً ، أيها القراء الاحبة ! ولكنني أسأل الله العلي القدير أن يبعثه في أنفسكم أحياناً كثيرة ! .. انني حين أحدثكم عن البشر اللذين تعبث بنفوسهم النزوات ويملأ قلوبهم البغض أتذكر سلوكي خلال ذلك اليوم كله . كانت نفسي تمتلىء حزناً منذ ذلك الصباح ، وكان يخيل الي أن العالم كله يهجرني ، وأن الناس جميعاً يهربون مني .

من حقكم أن تسألوني طبعاً : ولكن من هم « هؤلاء الناس ؟ » . ذلك أن ثماني سنين انقضت على اقامتي بمدينة بطرسبرج ثم لم أستطع أن أعقد مع أحد أواصر صداقة . ولكن فيم كان يمكن أن ينفعني الأصدقاء ؟ انني أعرف بطرسبرج كلها . لذلك خيل الي أن الناس جميعاً هجروني لأن المدينة كلها سافرت الى الريف . انه ليشق على نفسي

كثيرا أن أبقى وحيدا • وهأنذا منذ ثلاثة أيام ، أطوف في المدينة هائمـاً على وجهي لا أفهم ماذا يجرى في نفسى • أجتاز شارع نفســـكى ، أو اذهب الى حديقة الصيف ، أو اتنزه على الارصفة * ، فلا أرى هنا ولا هناك أى وجه من وجوه أولئك الذين ألفت أن ألقاهم طوال السنة ، في مواضع معينة وساعات محددة •

صحيح أنني في نظرهم غريب • ولكنني أعرفهم أنا جميعاً • لاشيء فيهم يفوتني • درست هيئاتهم • كنت اعجب بهم حين أراهم مرحـين ، وأتألم حين أبصر انهم حزانى • ولقد انعقدت صلة بيني وبين شيخ قصير القامة كنت ألقاه في ساعة بعينها من جميع الأيام على نهر فونتانكا • فى وجهه تعال وكبر ، وفي عينيه أحلام • وهو يدمدم دائماً في لحيته ، محــــركا ذراعه اليسرى ، بينما تمسك يده اليمنى بعصا ذات قبضة من ذهب • لقد لاحظني هذا الرجل ، وهو يهتم بحالتي النفسية • فاذا لم أكن في ساعة معينة في موضع معين من قنــاة فونتانكا أحزنه ذلك فيما أعتقد* • لذلك يحييى أحدنا الاخر أو يكاد يحييه ، لا سيما حين نكون كلانا في مزاج صاف رائق • فاذا اتفق أن انقضى يومان دون أن يرى أحدنا صاحبه ثم التقينا في اليوم الثالث ارتفعت يدانا الى قبعتينا عفواً ، ولكن كلاً منا مايلبث أن يثوب الى رشده فيمر بصاحبه على بشاشة متبادلة •

والمنازل صديقة لى أيضا • فحين أسير فكأن كل منــــزل من هـــذه المنازل يقبل عليَّ وينظر اليَّ من جميع نوافذه ويقول لى : « نعمت يوماً ! كيف حالك ؟ أنا بخير والحمد لله • في شـــهر آذار سيضاف اليَّ طابق جديد » أو يقول لى : « كيف صحتك ؟ أما أنا فسيصلحونني غداً » أو يقول لى أيضاً : « لقد أوشكت أن أحترق وخفت خوفاً شديداً » • الخ • الخ •• وبين هذه المنازل منازل أوثرها ، فكأنها من رفاقى ، فمنها واحد

ينوى آن يعالج هذا الصيف لدى معمار ، فأنا أتعمد آن أمر به فى كل يوم حتى لا يسرفوا فى افساده ، وأسأل الله أن يحرسه وأن يصونه ! ..
ولن أنسى ما حييت قصة ذلك البيت الجميل الصغير الوردى اللون ! لقد كان من حجر ، وكان أنيقا لطيفاً ، وكان يرمقنى دائماً بنظرة محبية ويبلغ من الادلال والزهو بالنظر الى جيرانه أن قلبى كان يبتهج ابتهاجاً كبيرا كلما رأيته فى نزهه من نزهاتى . فلما اجتزت الشـــارع فى الاسبوع الأخير نظرت الى صديقى الصغير فسمعته يئن قائلا : « سيصبغوننى بلون أزرق » ! يا للبرابرة الهمج المتوحشين ! انهم لا يشفقون على شىء ولا تأخذهم بشىء رحمة أو رأفة : لا الأعمدة ولا الأفاريز ! وأصبح صديقى أصفر كطائر الكنارى . ثارت ثائرتى وكدت أصاب بنوبة عصبية ، وما زلت الى الآن أشعر بأننى لا أستطيع النظر مرة أخرى الى صديقى الصغير الذى شوهوه تشويهاً كاملا وصبغوه بألوان امبراطورية السماء . *

لقد أصبحتم الآن لا تجهلون أيها القراء كيف أعرف بطرسبرج !

سبق أن قلت ان قلقاً قد عذبنى خلال ثلاثة أيام الى أن عرفت سببه. كنت أشعر فى الشارع بغربة (هذا غائب ، وذاك مسافر ، وأين الآخر ؟) وفى بيتى أيضا أصبحت أنكر نفسى . تساءلت خـلال سهرتين كاملتين : « ما الذى ينقصنى فى غرفتى الصغيرة ؟ لماذا أشعر بوحشة هنا ؟ » وأمضى أنظر حائراً فى الجدران الخضراء التى غشيها الدخان ، وفى السقف المغطى بأنسجة العنكبوت التى كانت ماتريونا تنجح فى الحفاظ عليها أيمـا نجاح ، وأعيد النظر الى جميع الأثاث ، فأدقق فى كل كرسى من الكراسى علنى أجد السبب فيما أشعر به من ضيق (ذلك أن قطعـــة من الأثاث تجعلنى مريضاً اذا هى لم تكن فى مكانها) . ونظرت من النافذة فلم أظفر بطائل .. لم تتحسن حـــالى . حتى لقـــد أردت أن أنادى ماتريونا ،

فاستدعيتها ولمتها على انها لم تطهر السقف من انسجة العنكبوت ، وأخذت عليها اهمالها عامة : ولكن عينيها أظهرتا دهشة ثم خرجت دون أن تنطق بكلمة ، وظل نسيج العنكبوت على حاله من الصحة والعافية حيث كان .
ولم احزر السبب الا اليوم فى أخر الامر . لقد « فلوا » جميعا الى الريف . اغفروا لى هذه الكلمة العامية ، ولكننى لست الان من صفاء المزاج بحيث أجيد تخير الالفاظ وانتقاء العبارات . ان بطرسبرج كلها قد سافرت الى الضواحى . وما من رجل مهيب المنظر وقور الطلعة أراه ينادى حوذياً فى الشارع الا وأتصوره رب أسرة يسافر ليستريح فى الريف مع ذويه بعد سنة قاسية من عمل قاس ، وما من عابر سبيل الا ونظرته تقول : « لن نمكث هنا يا سادتى الا برهة قصيرة ، وبعد ساعتين سنكون فى منزلنا الريفى » . وهذه نافذة تفتح ، وهذه أصابع صغيرة دقيقة ناعمة بيضاء كالسكر تضرب الزجاج ضربات خفيفة ، وهذا وجه نضير هو وجه فتاة تظهر من النافذة فتنادى بائع الازهار فيبدو لى ان هذه الازهار انما تشترى لتذهب فورا الى الريف وتختفى ، لا لتعطر مسكنا فى المدينة أو لتهب للأعين فرحة الربيع .

ولقد بلغت من التقدم فى هذا النوع من الاكتشافات ، أننى كنت أستطيع أن أعرف بنظرة واحدة أى بيت ريفى يسكنه أى واحد من هؤلاء المسافرين . ان الأسر التى تقيم فى جزر كامنى وآبتكارسكى وفى طريق بترهوف تتميز بما تتعمده من حركات أنيقة وآداب رفيعة وبما تملكه من ملابس غنية للصيف وعربات فخمة رائعة . وان سكان بارجولوفو وسكان القرى المجاورة يلفتون النظر بفخامة منظرهم وذكاء هيئاتهم * . ولا كذلك سكان جزيرة كريسكوفسكى فانهم أهل فرح ومرح لا ينطفئان .

فاذا التقيت بموكب طويل من المسافرين يتقدمون بخطى بطيئة

ممسكين أدلتهم بأيديهم قرب عرباتهم الملأى بالاثاث والموائد والكراسى والأرائك التركية وغير ذلك ، وفوقها طباخة نحيلة تحافظ على رزق مولاها محافظتها على بؤبؤ عينيها ، أو اذا رأيت قوارب تجرى على نهر نيفا أو نهر فونتانكا ملأى كذلك بأنواع الأمتعة ـ تكاثر ذلك كله فى عينىّ وتضخم مسافرا الى الريف مواكب مواكب • ان بطرسبرج كلها تهدد بأن تصبح صحراء مقفرة • لذلك كنت أشعر بحزن وقلق يملكان علىّ نفسى • كنت لا أعرف أين أذهب • وما كان ثمة داعٍ يهيب بى الى السفر • كنت أتمنى أن أتبع كل عربة من العربات ، وأن أجرى وراء كل مسافر من المسافرين ، ولكن ما من أحد يدعونى فقد نسونى ، وكأننى غريب عنهم جميعا !

لبثت أسير زمناً طويلا هائما على وجهى لا أعرف الشوارع التى أقطعها ، فاذا أنا أجد نفسى آخر الامر فى ظاهر المدينة • اجتزت حدود المدينة وقطعت الحقول والسهول لا أصغى الى التعب ؛ ولكننى شعرت بأن حملا ثقيلا قد سقط عن كتفى ، وشعرت براحة تشيع فى نفسى وفرح يترقرق فى قلبى • المسافرون ينظرون الىّ نظرة محبة ومودة ، حتى لكأنهم يحيوننى• فى وجوههم يلوح الرضى والسرور وهم جميعا يدخنون السيكار • كنت أنا أيضا سعيدا كما لم أكن كذلك فى يوم من الأيام • حتى لقد حسبتنى فى ايطاليا ، فالى هذه الدرجة كانت الطبيعة جميلة • ان الطبيعة لتملؤنى الآن بشراً واعجابا أنا الساكن المسكين من سكان المنازل الخانقة فى المدينة •

ان ثمة شيئا لا يمكن تحديده أو وصفه ، شيئاً يؤثر فى النفس أبلغ تأثير فى طبيعة بطرسبرج لحظةَ تفجّر كل قوتها عند اقتراب الربيع ، فاذا سماؤها تتلألأ جمالا ، واذا أزهارها تسطع بكل ما لها من سناء •••

ان طبيعة بطرسبرج تذكرك عندئذ بعذراء مريضة تنظر اليها أحياناً نظرة اشفاق ، وتنظر اليها أحيانا نظرة حب ، عذراء قد لا تلتفت اليها فى ساعات آخرى ولكنها تبلغ على حين فجأة من الجمال أنك تتســاءل وقد جننت اعجابا وافتتانا : « أية قوة تحمـل هاتين العينين الحـزينتين الحالمتين على الاحتراق بنـار كهذه النار ؟ ما الذى نادى الدمع الى هـذين الخـدين الخاسفين الناحلين الشاحبين ؟ أية عاطفة آنهـدت هذا الصدر ، وأى هوى جمّل القسمات الدقيقـة من هـذا الوجه ؟ ما الذى دعا القوة والحيـاة والحسن فجاة الى وجنتى هذه الفتاة المسكينة ؟ ما الذى أضاء هذا الثغر بمثل هذه البسمة ؟ ما الذى حرك الفم بمثل هذه الضحكة الرنانة المشرقة ؟ »، وتنظر أنت حولها باحثاً عن أحد فتحزر وتقدر ! . ولكن اللحظة تنقضى. ولعلك سترى فى الغداة تلك النظرة الزائغة نفسها ، وذلك الوجه الشاحب نفسه ، وآثار حزن قاتل يبكى هوى عارضا ... ويحزنك ان غاب ذلك الحسن الوامض الى الأبد ، ويحز فى نفسك أن الوقت لم يتسع حتى لأن تحبها ...

وكان ليلى أجمل من نهارى واليكم ما حدث لى :

رجعت الى المدينة فى ساعة متأخرة ، وحين قاربت أن أصل الى بيتى كانت الساعة قد دقت العاشرة . كنت أسير على رصيف القناة الذى لايلقى المرء عليه أحداً فى مثل هذه الساعة . اننى أقيم فى حى بعيد من المدينة. وكنت أسير وأنا أغنى كما يتفق لى ذلك حين أكون سعيداً . وتلك عادة مشتركة بين جميع المعتزلة الذين ليس لهم أصـدقاء ثم يخطر لهم أن يفصحوا عن فرحهم ! وانى لكذلك اذا بطارىء لم يكن بالحسبان يمنعنى من العودة الى مسكنى .

لقد أبصرت امرأة متكئة بكوعيها على افريز الجسر . كان يبـدو

عليها أنها تنعم النظر في ماء القناة العكر • ان على رأسها قبعة صفراء صغيرة جميلة ، وهي ترتدي خمارا أسود أنيقا • قلت لنفسي : هذه فتاة ، ولا شك أنها سمراء • لم تسمع وقع خطواتي وأنا أقترب منها ، ولا تحركت قط حين مررت بها حابساً أنفاسي • شعرت بقلبي يخفق خفقاناً قويا • قلت لنفسي : «غريب ! لا بد انها غارقة في تفكير عميق » ثم لم ألبث أن توقفت فجأة ، كأنني تسمرت في مكاني : لقد سمعت نشيجاً مكتوما ، بكاء مخنوقا • نعم لم يكذبني سمعي ! لقد كانت الفتاة تبكي ! رباه ! ما أشد ما انقبض صدري • صحيح أنني خجول مع النساء • ولكن اللحظة كانت تقضي ••• عدت أدراجي متجها نحــوها وكدت ان أخاطبهـا هاتفـا : « يا مدموازيل » لولا انني تذكرت أن هذا الهتاف قد كتب آلاف المرات في جميع الروايات الروسية التي يقرؤها أبناء المجتمع الراقي • ذلك هو السبب الوحيد الذي منعني من مخاطبتها هاتفـا بها « يا مدموازيل » • ولكن ، فيما كنت أبحث عن الكلمة المناسبة التي أخاطبها بها ، ثابت هي الى رشدها ، فانتصبت ، ونظرت حولها ، ثم اندفعت تجتاز رصيف النهر، فتبعتها فورا ، ولكنها حزرت أنني أتبعها فتركت رصيف النهر ، واجتازت أحد الشــوارع ، ومضت تسير على رصيفه • لم أجرؤ بعــد ذلك أن أتبعها ، فقد أخذ قلبي يخفق خفقان قلب عصفور سجين • غير أن ظرفا لم يكن في الحسبان قد خدمني في هذه اللحظة •

فعلى الجهة الأخرى من الرصيف ظهر فجأة ، غيرَ بعيدٍ من فتاتي المجهولة ، رجلٌ مسن قليلا يرتدي رداء فراك • كانت مشيته غير ثابتة ، فهو يترنح متسنداً على الحائط • والفتـاة تمشي مسرعة تغـذ الخطى ككل الفتيات اللواتي يرفضن سلفا أية دعوة الى اصطحابهن • وما كان لهـذا السيد الذي لا يزال يترنح في مشيته أن يدركها ، لولا أن قـدري قد أوحى اليه أن يعمد الى وسائل متعمدة ، فها هو ذا يسرع الخطو دون أن

يقول كلمة واحدة ، ويركض وراء الفتاة المجهولة . كانت الفتاة تسير مسرعة كالريح ، ولكن السيد الذى كان يمشى مشية سكران أصبح يزداد اقترابا منها شيئا بعد شيء حتى آدركها فأمسك بها فاذا هى تصرخ ... بورك فى القدر الذى جعلنى فى تلك اللحظة حاملا عصاى الرائعة فى يدى اليمنى ، فما هى الا وثبة واحدة حتى كنت فى الجهة الاخرى من الرصيف . وسرعان ما فهم الرجل من ذا الذى يتصدى له ، فلم يلبث أن أذعن لحجتى التى لا سبيل الى مقاومتها ، وانسحب دون أن يقول كلمة واحدة . وكنا قد ابتعدنا أنا والفتاة حين سمعنا تهديدات قوية . ولكن أقواله أصبحت لا تبلغ سمعنا .

قلت للفتاة :

ــ ناولينى يدك فلا يجرؤ بعد ذلك على أن يقترب .

فلما مدت الىّ يدها صامتة شعرت بها ترتعش انفعالا وذعرا . ما أكثر ما باركت ذلك الرجل فى تلك اللحظة ! وألقيت نظرة سريعة على رفيقتى . انها جميلة سمراء . لقد حزرت ذلك . وكانت دموع صغيرة لا تزال تتلألأ على أهدابها الطويلة السوداء . أهو حزن ؟ أهو خوف ؟ لا أدرى ... ولكن بسمة قد أخذت تنير وجهها منذ الآن ! وألقت علىّ نظرة مختلسة هى أيضا ، فاحمرت قليلا ولزمت الصمت .

قلت لها :

ــ لماذا صددتنى ؟ لو كنت معك لما وقع الذى وقع .

ــ ولكننى لم أكن أعرفك ، فقدرت أنك أنت أيضا ...

ــ والآن هل تعرفين من أنا ؟

ــ قليلا ! ولكن لماذا ترتجف ؟

ـ اذن لقد أدركت دفعة واحدة !

كذلك صحت فرحا . لقد سحرني أن أرى أنها ذكية . وذلك أمر لم يفسد جمالها . وتابعتُ أقول :

ـ نعم لقد أدركتِ فورا أي رجل أنا ! نعم انني خجول مع النساء . وأنا الآن مضطرب الحواس كاضطرابك أنت منذ لحظة حين أخافك ذلك الرجل ... ان الرعب قد استبد بي حتى ليخيل الى أنني أحلم ! بل انني في أحلامي نفسها لم يدر في خلدي يوما أنني سأخاطب امرأة .

ـ كيف ؟ أهذا صحيح ؟

ـ نعم ! واذا ارتجفت يدي فلأنها لم تمسك في يوم من الأيام يداً لطيفة كيدك . لقد هجرت معاشرة النساء هجرا تاما ! أعني أنني لم أعاشرهن يوما ، فأنا أعيش وحدي ... حتى أنني لا أعرف كيف أكلمك ، وما زلت الى هذه اللحظة نفسها لا أعرف ذلك . ألم أرتكب في حديثي حماقة من الحماقات ؟ أجيبيني بصراحة فلست سريع التأذي.

ـ لا .. لا .. بالعكس .. واذا شئت أن أصدقك القول اعترفت لك بأن هذا الخجل يعجب النساء ! واذا أحببت أن تعرف المزيد فاعلم أن هذا الخجل يعجبني أنا كثيرا . فأرجوك أن تصحبني الى النهاية .

ـ ولكنك ستجعلينني أفقد كل خجل فأفقد بذلك جميع ما أملك من مزايا .

قلت ذلك وأنا ألهث سعادة .

قالت :

ـ مزايا ؟ أية مزايا ؟ لماذا ؟ ذلك وحده نذير سوء .

ـ معذرة ! كان الامر أقوى منى ! وكيف أستطيع فى لحظة كهذه ألا أتمنى أن أنال •••

ـ الاعجاب ؟ اليس كذلك ؟

ـ طبعا ! أرجو أن تترفقى بى ! احكمى فى الامر بنفسك• لقدبلغت من العمر سته وعشرين عاما ولم ار فى حياتى احدا ، فانى لى ان اجيد الكلام بحذق ولباقة • ولسوف يحسن حالك أنت نفسك حين أتخلص من بعض هذا الخجل ••• لا أستطيع أن أسكت حين يتكلم قلبى ••• لا ضير على كل حال ••• صدقى أو لا تصـــدقى ••• الحقيقة أننى لم أعرف امرأة فى حياتى قط ، ولم تنعقد بينى وبين أحد صداقة حتى الآن ، وأملى فى كل يوم أن ألتقى أخيرا بانسان ! ليتك تعلمين كم مرة تولهت حبا على هذا النحو •

ـ ولكن كيف هذا ؟ وبمن تولهت ؟

ـ لم أتوله بأحد ! وانما تولهت بالمثل الأعلى الذى أراه فى أحلامى• أنا أخلق فى أحلامى روايات بأسرها ! انك لا تعرفيننى ! صـحيح أننى التقيت بامرأتين أو ثلاث ، فليس يستطيع المرء أن يعيش بدون ذلك ••• ولكن من كانت هاته النسوة ! خادمات بيوت ••• سوف أضحكك قليلا، فأعترف لك بأننى أردت عدت مرات أن أشرع فى حديث رقيق فى الشارع مع امرأة ارستقراطية • كانت عندئذ وحدها طبعا ، فاقتربت منها بخجل واحترام وعاطفة قوية •

قلت لها اننى أموت فى عزلتى وسـألتها ألا تصـدنى لأنى لا أملك الوسائل اللازمة لامتـــلاك امرأة • برهنت لها على أن من واجبهــا أن تستجيب لرجاء رجل بائس كبؤسى • ولقد أفهمتها على كل حال أن كل

ما أطلبه منها هو أن تخاطبني بكلمتين ، ببضع كلمات أخوية ، أن تهتم بمصيري ، أن تثق بكلامي وألا تستخف بي (اذا حلا لها ذلك) الا بعد أن تهب لى شيئا من أمل . كنت أرغب فى كلمتين منها ، كلمتين فحسب ، ثم نستطيع بعد ذلك أن نفترق الى الأبد ! ... أراك تضحكين ! ... على كل حال ، ذلك كان هدفى من سرد هذه القصة .

ـ لا تزعل : أنا أضحك لأنك عدو نفسك ، ولو قد حاولت مغامرة ما فلربما أصبت نجاحا ... ما من امرأة طيبة (اذا لم تكن حمقاء أو معتكرة المزاج) الا وكان يمكن أن تهب لك تينك الكلمتين الأخويتين اللتين ترغب فيهما تلك الرغبة القوية كلها ... ولكن ماذا أقول ! لاشك أنها كانت ستحسبك مجنونا . ولقد حكمتُ على الأمر الآن على أساس تفكيرى أنا . لست أجهل كيف يعيش الرجال .

صحت أقول :

ـ شكراً .. شكرا .. انك لا تعرفين ما صنعته فى سبيلى بهذه الاقوال . لقد أحسنت الى كثيرا ...

ـ طيب ! ولكن كيف عرفت أننى امرأة ... جديرة ... بالاهتمام والصداقة ... لماذا تعرضت لى ؟

ـ لماذا ؟ لأنك كنت وحدك . وقد أسرف الرجل فى التجرؤ عليك، والوقت ليل ، ألم يكن من واجبى أن أتدخل ؟

ـ لا ، لا ... قبل ذلك ... على الجسر .. أردت أن تكلمنى .. أليس كذلك ؟

ـ على الجسر ؟ الحق أننى لا أعرف كيف أجيبك ... اننى خائف

... لقد كنت اليوم سعيدا ... كنت أغني وأنا أسير ... طوفت خارج المدينة . لم أعش في حياتي لحظات سعيدة كل هذه السعادة . وظهرت لي ... ولكن اعذريني اذا ذكرتك ... لقد تراءى لي انك كنت تبكين ، ولم أستطع أن أحتمل ما سمعت من نشيجك ... انقبض صدري ... قلت لنفسي : رباه ! ألا أستطيع أن أقاسمها حزنها ؟ أكان خطيئة مني أن أشعر نحوك بعطف أخوي ... اغفري لي استعمالي كلمة « العطف » . ولكن قولي لي هل كان يسوءك حقا أن أقترب منك في تلك اللحظة ؟

ـ اسكت ... كف عن الكلام ...

قالت ذلك وهي تضغط يدي ضغطا قويا .

وتابعت تقول :

ـ أنا المخطئة في التحدث عن هذه الأمور . ولكن يسرني أنني لم أخطيء في حكمي عليك ... على كل حال هأنذا قد وصلت . سوف أنعطف في هذا الممر ، فلا يبقى بيني وبين مسكني الا ثلاث خطوات .. الى اللقاء وأشكرك .

ـ اذن لن نلتقي بعد الآن قط ؟ هل انتهى بنا الامر هنا ؟

قالت وهي تضحك :

ـ لم تكن تريد الا كلمتين ، والآن ... ثم اننا قد نلتقي .

قلت :

ـ سآتي الى هنا غدا . معذرة ... هأنذا أملي مطالب منذ الآن ..

ـ نعم أنت قليل الصبر تكاد تصدر أوامر ..

قاطعتها أقول :

ـ اسمعى ••• معذرة اذا قلت لك أيضا هذا •• لا أستطيع الا أن آتى الى هنا غدا • أنا امرؤ حالم يبلغ حظى من الحياة الواقعية من القلة والضآلة اننى لا بد لى أن أعيش مرة أخرى فى أحلامى اللحظات السعيدة التى تشبه هذه اللحظة • سأحلم بك طوال الليل ، الاسبوع كله ، السنة بأسرها • أعود فأقول لك اننى آت الى هنا غدا ، الى هذا المكان ، هـــذا المكان بعينه ؛ وسأكون سعيدا بأننى سأحيا الساعة الراهنة مرة أخـرى • هذه الأماكن عزيزة فى نفسى • ان لى فى بطرسبرج مكانين أو ثلاثة من هذا النوع • لقد حدث لى مرة أن بكيت لذكرى ، كما حدث لك منـذ برهة ••• لعل دموعك كانت تسيل أيضا بسبب ذكرى ••• ولكن معذرة ••• ما زلت أمضى بعيدا • لعلك كنت سعيدة هنا فى يوم من الايام !

قالت الفتاة :

ـ لك ما تريد ! سآتى الى هنا غداً فى الساعة العاشرة ، كاليـوم ! هأنت ذا ترى أننى لا أستطيع أن أمنع عنك هذا •• ولكن لا بد لى أن أكون فى هذا المكان ! فلا يذهبن بك الظن الى أننى أضرب لك موعداً •• ها قد أبلغتك •• ان علىَّ أن أكون فى هذا المكان لشأن من شئونى أنا • على أننى أعترف لك صراحة بأننى لن أضيق بحضـــورك • فقد تحدث مزعجات كما حدث اليوم • ولكن كفانا كلاما عن هذا • الخلاصة أننى سأحب أن أراك • ولكن حذار أن تحكم علىَّ حكما قاسـيا ، حذار أن تتخيل أننى أضرب مواعيد بمثل هذه السهولة ••• ما كان لى أن أطلب اليك المجىء لولا أن ••• ولكن دع هذا سراً لى !

ـ بل تكلمى ! قولى لى السر ! قوليه فورا ! اننى أوافق على كل

شيء ! أنا مسؤول عن نفسي ، وسأكون طيعا ، وسـأكون في غاية الأدب والاحترام •• أنت تعرفينني •

كذلك صحت فرحا فأجابت وهي تبتسم :

ـ لأنني أعـرفك انما أدعـوك الى المجيء غـدا ! أنا أعرفك حق المعرفة • ولكن حذار ! •• تعال بشرط •• بشرط عليك أن تتذكره دائما وأن يكون ماثلا في ذهنك كل لحظة ! اياك ثم اياك أن تحبني ••• ذلك لا يمكن أن يكون ، أؤكد لك • أنا أنشد الصداقة ! فاليـك يدي ولكن لا حب ! لا حب !

هتفت أقول وأنا أمسك يدها :

ـ يمينا لأتقيدن بهذا •

ـ دعك من اليمين ! أنا أعرف أن من الممكن أن تشتعل كالبارود • لا تسيء الظن فيّ اذا أنا قلت لك هذا الكلام • ليتك تعـلم ! ••• أنا أيضا ليس لي أحد أكلمه بقلب مفتوح ، وليس لي أحد أسأله نصحا ؛ ولا أستطيع أن أخاطب انسانا في الشارع • أنت استثناء ! يخيل الي أنني أعرفك كما لو كنا صديقين منذ عشرين عاما ••• انك لن تخونني قط •• أليس كذلك ؟

ـ سوف ترين ! •• ولكنني لا أعرف كيف سأعيش هذا اليوم !

ـ نم جيدا ! سعدت ليلتك • وتذكر أنك نلت ثقتي منذ الآن ! وكما قلت أنت نفسك : ليس علينا أن نحلل عواطفنا حتى ولا عواطف المحبـة الأخوية ! لقد عرفت كيف تخاطبني فسرعان ما خطر ببالي أن أثق بك وأن أفضي اليك بما في نفسي •

ـ ولكن ما الذى تريدين أن تبوحى لى به ؟ قولى أرجوك ...

ـ الى الغد ، وليبق هذا سرا الآن . وذلك أفضل لك ، حتى يكون أشبه برواية . قد أقص عليك كل شىء غدا ، وقد لا أفعل ! سنتحدث بادىء الامر ... وسنصبح صديقين حميمين أكثر من الآن ...

ـ نعم سأقص عليك حياتى كلها ! ولكن ما هذا ؟ ان معجزة تتحقق فى نفسى ... قولى : ألست نادمة على أنك لم تصدينى منذ البداية كما كان يمكن أن تفعل النساء الأخريات ؟ لقد جعلتنى سعيـــدا بلحظة من حديث : نعم جعلتنى سعيدا . صالحتنى مع نفسى ... بددت شكوكى .. على كل حال سأقول لك كل شىء غدا ... ستعرفين كل شىء .. كل شىء ...

ـ اتفقنا .. ستبدأ أنت ...

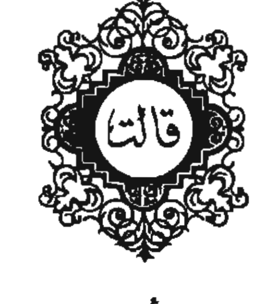
ـ موافق !

ـ الى اللقاء !

ـ الى اللقاء !

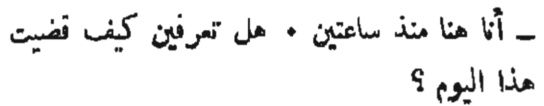
وافترقنا . ظللت الليل كله أطوف فى أرجاء المدينة ! لم أستطع أن أعود الى مسكنى ! كنت سعيدا غاية السعادة ! الى الغد !

الليلة الثانية



لى ضاحكة وهى تشد على كلتا يدى :

ـ هه ••• هل عشت يومك ؟



ـ أنا هنا منذ ساعتين • هل تعرفين كيف قضيت هذا اليوم ؟

ـ أعرف ، أعرف ••• ولكن فلنتكلم فى أمور جدية • لماذا جئت الى هنا ؟ اننى لم أجىء لأقول سفاسف وترهات كما فعلت أمس • يجب علينا أن نتصرف تصرفا أذكى • لقد فكرت فى هذا كله !

ـ فى أى شىء يجب أن نكون أذكى ؟ على أننى مستعد •• ولكن الحقيقة هى أننى لم يقع لى فى حياتى أمر أذكى من لقائنا •

ـ حقا ؟ أرجوك أولا أن لا تضغط يدى كل هذا الضغط ، وأعلن لك ثانيا أننى فكرت فيك كثيرا أول الامر •••

ـ وماذا قررت ؟

ـ ماذا قررت ؟ قررت أن علينا أن نعود الى البداية ، أن نستأنف كل شيء من أوله ، لأنني لا أعرفك قط . لقد تصرفت أمس كطفلة ، كبنية صغيرة . طبعا ... الذنب ذنب قلبي الطيب ... لقد مدحت نفسي كما نفعل دائما حين نصدر رأيا في أنفسنا . لذلك سأصلح خطيئتي بأن أسألك عن أدق تفاصيل حياتك ، لأنني لا أستطيع أن أسأل أحدا عنك ، فقصّ عليّ اذن كل شيء بدون أى تكتم . أى رجل أنت ؟ قصّ على تاريخك ! أسرع .

صحت مذعورا :

ـ تاريخي ! ولكن من قال لك ان لي تاريخا ! أنا ليس لي أى تاريخ .

قاطعتني ضاحكة تقول :

ـ كيف عشت اذا لم يكن لك تاريخ ؟

ـ عشت دون أى تاريخ ! عشت .. هكذا .. ببساطة .. وحدى دائما .. هل تفهمين ؟ عشت وحيدا .

ـ عشت وحيدا ؟ كيف هذا ؟ ألم تر انسانا قط ؟

ـ بلى ! انني أرى كثيرا من الناس ولكنني أظل وحيدا .

ـ كيف هذا ؟ ألست تكلم اذن أحدا ؟

ـ هذه هي الحقيقة خالصة . لست أكلم أحدا .

ـ ولكن من أنت اذن ؟ اسمع ! لقد حزرت .. لعل لك جدة مثلي أنا ؟ انها عمياء ، ولا تسمح لي بالخروج أبدا ، لذلك فقدت عادة الكلام

فقدانا تاما . ولما ارتكبت منذ سنتين بعض الحماقات أدركتُ أنها لن تستطيع أن تحبسني عن الخروج ، فنادتني وربطتني الى ثوبها بدبوس . هــكذا نعيش معا أيامنا كلها : هي تنسج جواربها رغم أنها عمياء ، وأنا أجلس الى جانبها أقرأ لها أو أخيط . عادة غريبة ، أليس كذلك ؟ نحن مشدودتان احدانا الى الأخرى بدبوس منذ سنتين ...

ـ رباه ! ما هذا الشقاء ! .. لا .. ليس لي جدة كهذه الجدة .

ـ فكيف تستطيع اذن أن تمكث في بيتك ؟

ـ أراك تصرين على أن تعرفي من أنا !

ـ نعم .. نعم ..

ـ بأدق معاني هذه الكلمة ؟

ـ بأدق معانيها .

ـ لك ما تريدين ! فاعلمي اذن أنني مخلوق غريب .

ـ مخلوق غريب ؟

كذلك صاحت الفتاة وهي تنفجر ضاحكة بقهقهة مجنونة ، وتابعت تقول :

ـ حقا ان المرء لا يشعر معك بملل. اسمع ! هذا مقعد فلنجلس عليه . ما من أحد يجيء الى هنا ، ما من أحد سيسمع كلامنا . ابدأ سرد حكايتك .. انني مقتنعة أن لك حكاية ! لا تخفها عني ؟ اشرح لي أولا ماذا تعنيه بقولك « مخلوق غريب » .

مخلوق غريب ؟ المخلوق الغريب انسان شاذ ، انسان ... مضحك.

كذلك أجبت وأنا أضحك اذ سمعتها تضـــحك ، وتابعت أقول :

ـ المخلوق الغريب طبع خاص ••• مزاج حالم ••• هل تعلمين ما هو الانسان الحالم ؟

ـ الانسان الحالم ؟ كيف لا أعرفه ؟ أنا نفسى أحلم دائمـا • حين أقضى أيامى كلها جالسة قرب جـــدتى ••• رباه ! ما أكثر ما يدور فى نفسى حينذاك ! أحلام لا نهاية لها : أتزوج أمـيرا صـينيا مثلا ••• انه ليسعد المرء كثيرا فى بعض اللحظات أن يسترسل فى الأحلام •

وأضافت تقول برزانة ورصانة :

ـ على كل حال ، من يدرى ؟ لا بد أن يفكر المرء فى أمور جدية أيضا •

ـ حسنا لســـوف تفهميننى أيضـــا ما دمت تخيلت أنك تتزوجين امبراطور الصين • فاسمعى اذن ••• ولكن ••• معذرة لم أعرف اسمك الى الآن !

ـ هه ! الآن تفطن الى ذلك ؟

ـ لم يخطر ببالى هذا الامر • كنا على خير حال هكذا •••

ـ يسموننى ناستنكا •

ـ ناستنكا ؟ أهذا كل اسمك ؟

ـ ألا يكفيك هذا أيها الرجل الذى لا يشبع ؟

ـ بالعكس انه ليسعدنى أن يكون اسمك عندى ناستنكا فقط •

ـ طيب •• طيب هأنذا أصغى الى حديثك الآن •

جلست قربها متجمعا على نفسي ، وأخذت أقص عليها كمن يقرأ قراءة :

ـ ان في بطرسبرج يا ناستنكا أركانا غريبة جدا . الشمس التي تسطع لجميع سكان المدينة لا تنفذ الى تلك الأماكن ، وانما تسطع في تلك الأركان شمس أخرى ذات ضياء خاص كأنه خلق لهذه الزوايا التائهة وحدها دون غيرها .البشر يحيون في هذه الزوايا حياة لا تشبه الحياة التي تغلي وتفور حولنا مختلفة غريبة بعيدة . هذه الحياة مزيج من صفاء رائع خيالي مثالي ومن اسفاف تافه وابتذال رخيص .

ـ ألله الله ! ... يا لها من مقدمة ! ما عساني سامعة أيضا ؟

ـ ستسمعين يا ناستنكا .. (آه ما أسعدني اذ أناديك بهذا الاسم !) ستسمعين أن هذه الأحياء يسكنها بشر يثيرون العجب والدهشة . انهم الحالمون . والحالم اذا أردت أن أعرفه لك ليس انسانا بل مخلوق ... لا تحديد له ... انه يؤثر الزوايا التي لا يمكن بلوغها والوصول اليها ، كأنه يهرب من ضوء النهار ، مثله كمثل تلك الحيوانات الغريبة ـ السلاحف ـ التي تحمل بيوتها معها . ترى لماذا يحبون كل هذا الحب جدرانهم الصغيرة الأربعة المدهونة دائما بلون أخضر ، التي يشيع فيها الحزن ويملؤها الدخان بغير انقطاع ؟ ترى لماذا حين يجيء الى أحدهم صديق (لاحظي أنه يفعل كل ما يحسن أن يفعله على خير وجه حتى يغيب عنه جميع الاصدقاء اخر الامر) ، ترى لماذا حين يجيء هذا الصديق يهب ذلك الانسان الشاذ الى استقباله خجولا كل الخجل وقد تغير وجهه كل ذلك التغير ، حتى لكأنه قارف بين جدرانه الاربعة الصغيرة جرما ، كأنه صنع أوراقا نقدية مزيفة ، أو نظم أبياتا من الشعر صغيرة ليرسلها الى مجلة مع رسالة لا يذكر فيها اسمه قائلا ان ناظم هذا الشعر صديق له

قد مات وانه يرى أن من واجبه المقدس أن ينشر انتاجه • ولماذا ياناستنكا يخمد الحديث بين هذين الصديقين ؟ لماذا يضوى ويهن ، فلا ضحكة ، ولا كلمة جريئة ، ولا اشارة الى الجنس اللطيف ؟ لماذا يصبح الصديق نفسه (وهو لن يعود قط ولن يكون له خلف) لماذا يصبح الصديق نفسه مضطربا كل ذلك الاضطراب ؟ لماذا يفقد كل حس سليم (اذا كان له منه شيء) حين يلاحظ كيف تشعث وجه رب البيت الذى فقد صوابه هو أيضا فقدانا كاملا • ان رب البيت يحاول عبثا أن يظهر علمه بآداب المجتمع وأن يبعث في الحديث شيئا من الحياة بالكلام على النساء ، وأن يسلى صديقه الذى جاء يزوره خطأ • ولماذا يتناول هذا الصديق أخيرا قبعته ويهرع نحو الباب متذكرا على حين فجأة مهمة عاجلة لا وجود لها فى الواقع ؟ وفجأة يتحرر من العناق الحار ، عناق صاحبه الذى يجهد أن يعبر عن أسفه وأن يصلح ما أفسده فتوره ؟ لماذا ينفجر الصديق ضاحكا وراء الباب قاطعا على نفسه عهدا أن لا يضع قدميه بعد اليوم فى بيت هذا الانسان الشاذ الذى هو رجل طيب شهم على كل حال • انه يقارن فى ذكراه بين وضع هذا المسكين صاحب البيت وبين وضع قطة ضربها الاطفال فهربت مذعورة الى الظلام تحت المائدة ، وظلت ساعة بكاملها تسترد عافيتها شيئا فشيئا وتغسل فمها الجريح بقائمتيها الصغيرتين ، وتظل تنظر بعد ذلك نظرة عداء الى كل شيء وحتى الى الخادمة التى تأتيها بطعامها •

قاطعتنى ناستنكا تقول وعيناها تعبران عن الدهشة :

ـ اسمع ! اننى لا أفهم قط كيف يمكن أن يكون هذا الذى تقصه

قد وقع فعلا • ولماذا تلقى علىّ أسئلة غريبة كل هذه الغرابة ؟ ولكننى أعلم أن هذه المغامرات كلها هى مغامراتك •

أجبتها فى جد قائلا :

ـ بدون أدنى شك •

قالت ناستنكا :

ـ أكمل اذن ، فاننى أحب أن أعرف كيف سينتهى هـذا كله •

قلت :

ـ انك تحبين أن تعرفى حياة بطلنا أو بالأحرى حياتى ، لأن بطـل قصتنا هذه هو أنا ، هو شخصى المتواضع الصغير • تريدين أن تعرفى لماذا اضطربت هذا الاضطراب كله من زيارة صديقى التى لم أكن أتوقعها ، لماذا انتفضت مذعورا واحمر وجهى احمرارا شديدا حين فُتح باب غرفتى، لماذا أنا عاجز عن استقبال ضيف ؟

أجابت ناستنكا :

ـ نعم •• نعم •• اسمع ! انك تجيد رواية قصتك اجادة رائعـة ولكن أليس فى وسعك أن تتكلم بلغة أبسط من هذه اللغة وعبارات أبسط من هذه العبارات ؟ انه ليخيل الى أنك تقرأ فى كتاب •

أجبتها بصوت رصين وقور محاولا أن لا أضحك :

ـ ناســتنكا ! أنا أعرف أننى أجيـد الحديث • ولكننى أستميحك عذرا ، فاننى لا أستطيع أن أقص بغير هذه الطريقة • أنا أشبه الآن روح الملك سليمان التى يقال ان أختامها السبعة قـد فضت عنه بعـد أن ظلت

حبيسة سبعة آلاف عام • لقد التقينا يا ناستنكا بعد فراق طويل ••• ذلك أننى أعرفك منذ زمن طويل جدا • آنا آبحث عن أحد منذ سنين • أنا أبحث عنك أنت منذ سنين • ولقد كتب علينا آن نلتقى ، فاذا ألوف العواطف التى ما تزال مكبوتة قد تفجرت فى نفسى • وهأنذا أدع لأمواج من الكلام أن تطفح وتفيض حتى لا أختنق • لذلك لاتقاطعينى يا ناستنكا والا اضطررت أن أسكت •

ـ تكلم اذن تكلم ! فلن أنطق بحرف واحد •

ـ هأنذا أتابع اذن • هناك ساعة من ساعات اليوم أحبها كثيرا : هى الساعة التى تنتهى فيها جميع الواجبات والاعمال فيهرع الناس الى منازلهم للعشاء ، ويستلقون نشدانا للراحة • هذه الساعة هى الساعة التى يفكر فيها الناس كيف يقضون السهرة بل الليلة مرحين • ان بطلنا أيضا (اسمحى لى آن أتحدث عن نفسى بصيغة الغائب) ان بطلنا الذى قضى النهار كله فى العمل ، يتبع الآخرين فى عودتهم الى منازلهم ، ولكن شعورا غريبا باللذة يلاحظ عندئذ على وجهه المتعب الشاحب • انه ينظر الى الغسق الذى يهبط على سماء بطرسبرج الباردة ، ينظر الى هذا الغسق لا نظرة من لا يبالى ، حتى انى لأكذب حين أقول انه ينظر ، فانما هو يتأمل تأملا ، ربما على غير شعور منه ، كانسان متعب تستغرقه أفكار أخرى ، موضوعات أقرب الى اهتمامه والصق بأشواقه • فهو لذلك لا يولى كل ما يحيط به الا انتباها قليلا • هو سعيد بأنه فرغ الى الغد من أعماله الحزينة ، مرح مرح التلميذ يخرج من المدرسة للعب والمتعة • لاحظيه يا ناستنكا تجدى فورا أن عاطفة الفرح التى يشعر بها قد أثرت فى أعصابه المريضة وخياله المحموم • انظرى ! لعله يفكر •• هل تظنين أنه يفكر فى العشاء ؟ فى السهرة التى تنتظره ؟ الى من هو ينظر هكذا ؟ أهو ينظر الى ذلك السيد

الوقور الذى حيا سيدة فى عربتها تحية احترام ؟ لا يا ناستنكا انه لا يحفل بهذه التفاصيل ! انه غنى بحياته الداخلية النفسية • وأشعة الشمس الغاربة لم تتلألأ عبثا أمامه ، بل غمـــرت روحه بطائفة من المشاعر الجـديدة • أصبح لا يلاحظ الطريق الذى كانت تفاصيله اليسيرة تفتنه قبل ذلك • ان « الهة الأحلام » (هل قرأت جوكوفسكى يا عزيزتى ناستنكا) تنشر أمام بصره منذ تلك اللحظة النسيج الذهبى والصـــور الرائعة والتهاويل الفاتنة من حياة خيالية ساحرة لا يمكن تصورها • ومن يدرى ؟ لعل الهة الأحلام قد نقلته الى السماء السابعة البلورية ، ولعلها تسير به على رصيف من رائق المرمر ! حاولى أن تستوقفيه وأن تسأليه فجأة : « الى أين أنت ذاهب وأىّ شارع قطعت ؟ » • انه لن يســـتطيع أن يجيبك ، وسيحمر خجلا ، ثم يلفق لك كذبة انقاذا للمظاهر • من أجل ذلك انمـا ارتعش وكاد يصرخ ونظر حواليه مذعورا حين اســـتوقفته تلك المـرأة العجوز القصيرة الطيبة تسأله عن طريقها الذى ضلته • لقـــد قطب حاجبيه وتابع طريقه دون أن يلاحظ المارة الذين ابتسموا ودمدموا بكلام لم يسمعه • وهذه بنية صغيرة قد اضطرت أن تتنحى لتفسح له مجالا ، فاذا هى تنفجر فى قهقهة صاخبة حين نظرت بكلتا عينيها الى ابتسامته العريضـة واشاراته البليغة • ولكن « الهة الأحلام » * تلك تصطاد فى شباكها المرأة العجوز أيضا والمارة المستغربين والبنية التى تضحك وحتى أولئك الرجال الذين يلتهمون طعامهم على قاربهم فى نهر فونتانكا • هؤلاء جميعا يحيون فى هذا الحلم الذى اختطفتهم اليه « الهة الأحلام » كما يختطف العنكبوت الذباب الى نسيجه • هؤلاء جميعا يحيون فى ذلك الحلم الذى يحلمه صديقنا حين يعود الى غرفته الصغيرة فرحا ، فيجلس الى مائدته ، ويتعشى ، ولا يثوب الى نفسه الا حين تحمل اليه ماتريونا غليونه ، فهو يستيقظ عندئذ ويتذكر مدهوشا أنه تناول عشاءه لا يدرى كيف ! الظلام يخيم فى غرفته ونفسه

حزينة مقفرة • مملكة الأحلام قد تهاوت حواليه بلا ضوضاء ولا صخب ولم تترك أثرا ! لقد هربت هروب طيف ! حتى أن بطلنا لا يتـذكر أنه حلم • ولكن عاطفة مبهمة تعود فتهز قلبه ، ورغبة أخرى تدغدغ خياله لذيذة ممتعة ، ثم سرعان ما تهيجه ، وتخلق له عالما جديدا من الاشباح شيئا بعد شيء • الصمت يرين على الغرفة ؟ والعزلة والكسل يهدهدان فكره الذي يصعد ويغلي غليانا خفيفا كالماء في غلاية القهوة التي تصنع فيها العجوز ماتريونا قهوتها في المطبخ • والكتاب الذي تناوله صاحبنا الحالم بغير هدف وعلى غير هدى يسقط من بين يده قبل أن يتم قراءة الصفحة الثالثة منه • لقد اهتاج خياله من جديد • وهـذا عالم رائع يظهـر له في صور مثالية • وهذه حياة حافلة بالمباهج تخطر أمامه أشكالا أخاذة ، حلما آخر ، سعادة جديدة ! وها هو ذا يمتص مزيدا من الامتصاص سم اللذة المرهفة • ماله ولحياتنا الواقعية ! نحن لا نحيا الا قليلا جدا ! نحن لا نحيا الا بطيئا جدا ! نحن لا نحيا الا حياة رتيبة جدا • ونحن نندب حظنا كل يوم غير راضين عنه • انظرى من حولك : ألا ترين كل شيء في الواقع برودة وغضبا وقسوة ؟ •• « يا لهم من بؤساء ، كذلك يقول الحالم لنفسه• ولماذا لا يقوله لنفسه ؟ ان صورا جميلة بعينها تخطر أمامه ، وان أطيـافا رائعة تداعب خياله على متعة ونشوة ، فيرى بطلنا نفسه شخصية أولى في الصف الأول • تصورى جميع تلك المغامرات المتنوعة • تصـــورى هذه السلسلة التي لا نهاية لها من الأحلام الحارة • ولكن لعلك تسألينني عن موضوع أحلامه ••• هو رسالة الشاعر ، المغمور في أول الأمر ، المتوّج باكليل المجد بعد ذلك •• هو صداقته معهوفمان* ، هو ليلة سان بارتلمي، هو ديان فرنون ، هو السلوك البطولى الذى أظهره ايفان فاسيليفتش عند الاستيلاء على قازان ، هو كلارا موفبراى ، هـو ايفى دينز ، هـو أحبار المجمع البابوى وأمامهم هوس ، هو يقظة الموتى في « روبير الشـيطان »

(ألا تذكرين هذه الموسيقى التى تفوح منها رائحة المقابر ؟) هـو مينـا وبراندا ، هو معركة بيريزينا ، هو قراءة قصيدة عند الكونتيسة ف...د... هو داتتون ، هو كليوباترا وغرامها ، هو بيت كولومنا الصغير ، هو ركن صغير تجلس الى جانبه فيه مخلوقة حبيبة تصغى الى كلامه فى أمسية من أمسيات الشتاء فاغرة فاها ، محملقة بعينيها الصغيرتين ـ كما تصغين الىّ الآن يا ملاكى الغالى .. لا يا ناستنكا ما شأن هذا الانســـان الوانى بهـــذه الحياة التى نجنح اليها كلانا ؟ انه مقتنـــع بأن هذه الحياة صغيرة مسكينة عامية مبتذلة . وهو لا يقول لنفسه ان ساعة قد تجيء فاذا هو يفرحه ان يبيع جميع هذه السنين التى قضاها فى الاحلام بيوم من تلك الحياة . ولا تحسبى أنه سيختار اليوم الذى هو أسعد الأيام فى هذه الساعة التى يعانى فيها الندامة والالم ، ولكنه فى هذه اللحظة ، بينما هو يحلم ، لا يرغب فى شيء ، لأنه فوق الرغبات ، لأن أحلامه تشبع جميع حاجاته ، وتروى كل ظمئه . انه صانع حياته ، وهو فى كل لحظة يخلق حياته على ما يريد له هواه ! وما أسهل ما يولد هذا العالم الخيالى الاسطورى طبيعيا من تلقاء نفسه ، حتى لكأن الأمر ليس أمر أشباح ! فان صاحبنا الحالم مؤهب حتى للاعتقاد بأن هذه الحياة ليست أكذوبة من أكاذيب الخيال ، ولا خطأ من أخطاء الحـواس ، بل هى الواقع الحق القائم ! والا فلمـــاذا يا ناستنكا تتسارع نبضات قلبه وتتدفق الدموع من عينيه وتحترق خداه الشاحبتان ؟ لماذا يمتلىء كيانه كله بفرح لايوصف ، ولماذا تذوب ليالى بأسرها من الأرق فى لحظة سعادة لا سبيل الى التعبير عنها ؟ حين تطلع أشعة الفجر الشاحبة فتنسل من النوافذ وتنير الغرفة الصغيرة الحزينة التى يقطنها صاحبنا الحالم بضياء مبهم لا يحدد ، فانه يرتمى على سريره متعبا مهدود القوى ، وينام باكيا من الفرح مهتاج الروح اهتياجا يشبه أن يكون مرضا . نعم ياناستنكا، قد يخطىء المرء عندئذ فيحسب أن هوى حقا يضطرم فى روحه ، وأن

الواقع قائم في أحلامه المجنونة . خطأ ذلك ! هكذا يكون الحب قد نفذ الى قلبه بفرحه الذى لا ينضب ، وآلامه الحادة الكاوية ... ولكن انظرى اليه ! هل تحسبين أنه لم يعرف أبدا تلك التى يحبها فى أحلامه ! ألم ير حقا تلك المرأة الا طيفا فاتنا ، ولم يزد على آن عانى هواه فى الأحلام ! من يدرى ؟ لعلهما قد عاشا كلاهما سنى عمرهما يدا بيد ، بعيدين عن العالم ، موحدين حياتيهما الى الابد . هل يمكن آن لا تكون هى التى ، فى أواخر الليل ، لحظة الفراق ، قد رقدت ناحبة يائسة على حضنه لا تسمع العاصفة الهوجاء تحت السماء المشئومة ، ولا تسمع الريح التى تنتزع الدموع من أهدابها السوداء وتطير بها فى الفضاء ؟ ألم تكن الا حلما تلك الحديقة الحزينة المتوحشة المنعزلة التى كثيرا ما عاشا فيها اعتكافهما فى الآمل واليأس والحب الحنون الخالد ، وذلك المنزل العريق القديم الغريب الموروث عن الأجداد الذى عاشت فيه زمناً طويلاً مع زوجها الشيخ الكالح المتجهم الصامت المبغض الذى يلاحقهما هما الخجولين كطفلين فى حبهما الصامت المتخفى ! ما أكثر ما كانت تنزل عليهما الالام ! وما أكثر ما كانا يمتلئان خوفا وقلقا ! ما أكثر ما كان حبهما بريئا صافياً ! وما أكثر ما كان الناس (بطبيعة الحال يا ناستنكا) أشرارا فى معاملتهما ! ويا رب ، أليست هى التى التقى بها بعد ذلك بعيدة عن وطنها فى سماء أجنبية جنوبية حارقة ، فى « المدينة الخالدة » الرائعة ابان حفلة راقصة ساطعة وسط أصوات الموسيقى (موسيقى البالازو طبعا) الغارقة فى خضم من نيران ، على الشرفة التى تتعانق فيها فروع الآس وأزهار الورد ، فلما عرفته أسرعت تنضو عن وجهها القناع ، مدمدمة أنا حرة ، وهى ترتجف وتنتحب وترتمى فى ذراعيه، فاذا هما فى صرخة من الحماسة وقد احتضن كل منهما الآخر ، ينسيان ما قاسياه من ألم وما عانياه من عذاب الفراق وصروف الأيام ، وينسيان المنزل القاسى والشيخ والحديقة القاتمة فى

.الوطن البعيد ، والمقعد الذى كانا جالسين عليه فى آخر يوم حين انتزعت نفسها من عناقه فى قبلة محمومة وقد تشنجت من فرط الألم ••• أواه يا عزيزتى ناستنكا ! اعترفى بأن المرء قد يطير صوابه ويضطرب ويحمر كتلميذ كان يدس فى جيبه تفاحة سرقها من بستان مجاور ، حين يكون على هذه الحال فاذا بفتى فارع القامة ممتلىء بالعافية مرح المزاج جرىء الطبع ذرب اللسان حلو الحديث ، هو صديقه ، يفتح بابه بدون سابق دعوة ويهتف صائحا كأن شيئا لم يكن : « هأنذا يا عزيزى وصلت الآن من بافلوفسك ! » يا رب ! الكونت الشيخ مات ، وهذه هى السعادة جاءت أخيرا ، السعادة التى لا تغلب ، فاذا الناس يصلون فى تلك اللحظة من بافلوفسك !

سكتُ بنوع من التفخم بعد أن فرغت من أقوالى الملأى فخفخة وانتفاخا • وانى لأذكر أن قد قامت فى نفسى رغبة رهيبة فى أن أضحك ضحكة مجنونة طويلة لأننى شعرت شعورا قويا بوجود شيطان عدو يتحرك فى أعماقى بينما أخذ حلقى ينقبض وأخذت ذقنى ترتعش وأخذت عيناى تخضل •• كنت آمل من ناستنكا التى كانت تصغى الى محملقة بعينيها الذكيتين أن تضحك ضحكتها الفتية المرحة ، وكنت قد أخذت منذ ذلك الحين أندم على أننى أسرفت فى الكلام وأطنبت فى قص ما كان يغلى فى نفسى • كنت قد أدنت منذ زمن طويل حياة الاحلام هذه التى أحياها ولم أكن آمل أن أُفهم الآن حين فتحت قلبى • ولكن ما كان أشد دهشتى حين رأيت ناستنكا بعد أن لبثت صامتة بضع لحظات تشد على يدى خجلى وتسألنى :

ـ أحقا عشت هذه الحياة ؟

فأجبتها :

ـ دائما يا ناستنكا • وأحسب أننى سأموت هكذا •

قالت قلقة :

ـ لا ! هذا مستحيل ! هذا لن يكون •• وهل أظل أعيش أنا أيضا قرب جدتى الى الأبد ؟ هل تعلم أن الحياة على هذا المنوال ضارة مؤذية ؟
صحت أقول وقد أصبحت لا أملك ضبط فكرى :

ـ نعم يا ناستنكا • أعـــرف ذلك • ولقد أصـبحت لا أجهل أننى ضيعت أحسن سنى عمرى • وانى لأتألم من هذا اليقين • لا سيما الآن بعد أن أرسلك الله الىّ ، ياملاكى الطيب من أجل أن تعلمينى هـذا وأن تبرهنى لى عليه • وانى اذ أحدثك ليبدو لى غريبا أن أفكر فى المستقبل الذى يمثل العزلة والوحدة ويمثل تلك الحياة الباطلة نفسها • وما عسى أن يكون موضوع أحلامى بعد اليوم وقد عشت واقع الســـعادة بالقرب منك ؟ بورك فيك أيتها الفتاة العزيزة • لأنك لم تصدينى ولأنك أتحت لى أن أقول اننى عشت فى حياتى أمسيتين •

صاحت ناستنكا تقول والدموع تتلألأ فى عينيها :

ـ لا ، لا ، هذا لن يكون ! لن ننفصل هكذا ! ما أمسيتان ؟

ـ آه يا ناستنكا ، ناستنكا •• ليتك تعلمين كم صالحتنى مع نفسى • لن أحكم على نفسى بعد الآن حكما يبلغ مبلغ سوء حكمى عليها من قبل• لن أظن أننى ارتكبت خطيئة ، اننى ارتكبت جريمة فى حياتى ، لأن هذه الحياة جريمة • ولا تحسبى أننى أبالغ ناشدتك الله ! لا تحسبى هـذا ياناستنكا ، فاننى أعانى حقا لحظات رهيبة من الحزن ، وانى لأقتنع حينذاك أنه يستحيل علىّ أن أبدأ حياة حقيقية • لقد فقدت كل معرفة بالواقع ، فقدت كل شعور بالواقع ؟ وان ساعات اليقظة التى أعيشها بعد ليال خيالية،

لهى رهيبة الوقع فى نفسى . وأنا فى أثناء ذلك ، أرى جمهرة البشر تدور في اعصار الحياة من حولى ، اعصار الحياة الواقعية التى لا تذهب بددا كحلم ، الحياة التى تتجدد تجددا متصلا وتبقى فتية ريانة الفتوة . ولا كذلك أحلامى التى تبقى هى هى حزينة عادية أسيرة لظلمة الفكر ، لاول غمامة تحجب الشمس فتحزن قلوب أهل بطرسبرج الذين يحبون الضياء هذا الحب كله . ان هذه الاحلام لتسأم وتنضب وتنتثر غبارا ، فاذا لم تجيء حياة جديدة تغذيها فمن هذا الغبار انما ستعود وتنشأ حياة التهاويل والأخيلة . والنفس ترغب أثناء ذلك فى شيء آخر ولكن الحالم يبحث عبثا فى أحلامه القديمة ، كمن يبحث فى الرماد عن شرارة يمكن أن تعيد الحركة الى قلبه الذى جلده الصقيع ويمكن أن تبث الحياة مرة أخرى فى كل ما كان حبيبا الى قلبه ، وحنانا وجمالا فى نظره ، وما كان يستدر دموع عينيه ويفتنه عن نفسه تلك الفتنة الساحرة . هل تعلمين يا ناستنكا أننى اضطررت للاحتفال بأعياد سنوية لعواطفى ، لما عبدته دائما ولم يوجد فى الواقع قط . ذلك أن هذه الاحتفالات السنوية تذكرنى بتلك الأحلام الغبية الباطلة التى اختفت هى نفسها . الأحلام تتبدد أيضا ، أليس كذلك ؟ هل تعلمين أننى أحب تذكر الأماكن التى كنت فيها سعيدا ، وأن أعود فأراها ؟ اننى أحب أن أعيش الحاضر من خلال ذكرى الماضى ، وكثيرا ما أهيم على وجهى حزينا بلا هدف أقصد اليه فى شوارع بطرسبرج ودروبها ــ وما أكثر ما هنالك من ذكريات فى كل مكان ! ــ فأتذكر أننى منذ سنة تماما ، فى هذه الساعة عينها ، كنت أسير على هذا الرصيف عينه منهوك القوى مهدود الروح كالآن ؛ وكانت أحلامى حدادا ، ولم تكن حياتى أقرب الى الفرح كثيرا ، ولكن يخيل الى أننى كنت أحيا حياة أجمل من حياتى الآن ، وأن الأفكار السود لم تكن تسكن دماغى قوية عنيفة كما تسكن فيه الآن ، واننى لم أكن أعانى من هذه الندامات

وآلام الضمير التى لا تدع لى اليوم راحة . وانني لأسائل نفسي : أين أحلامك كلها اذن ؟ ولشد ما تجرى السنون سريعة سريعة ! أحسن مافى حياتك مات . أأنت قد حييت حقا ؟ انظر كيف صار كل ما حواليك جليدا من الصقيع ، وستنقضى سنون أخرى وستظل تعيش هذه العزلة الرهيبة ثم تدب فيك الشيخوخة العاجزة . عالمك الخيالى ستحول ألوانه، وأحلامك الكثيرة ستسقط سقوط الأوراق الصفر عن أشجارها في الشتاء ... آه يا ناستنكا ما أبأس أن يبقى المرء وحيدا ، وحيدا كل الوحدة . وما أبأس ألا يكون له ما يتحسر على انقضائه ... لأن كل ما فقده انما كان عدما باطلاً ، صفرا غبيا ، حلما عابرا .

دمدمت ناستنكا تقول وهى تكفكف دمعها :

ـ كفى ! لا تحزنى مزيدا من الحزن . انتهى الأمر الآن . وسنكون بعد اليوم اثنين . ولن نفترق مهما يحدث لى . اسمع ! أنا فتاة بسيطة على حظ ضئيل من الثقافة ، رغم أن جدتى قد سمَّت لى أستاذا . ولكننى أفهمك لأننى عشت بنفسى كل ما قصصته علىّ الآن . صحيح أننى ما كنت لأستطيع أن أقصه هذا القص الجميل (كذلك أضافت تقول خجلى) لكننى شعرت بهذا كله حين ربطتنى جدتى الى ثوبها بدبوس ، ويسعدنى أنك أفضيت الىّ بذات نفسك . أنا أعرفك الآن ، أعرفك حق المعرفة ، وأريد أن أحكى لك حكايتى دون أن أخفى عنك شيئا . وسوف تسدى الى بالنصح بعدئذ . أليس كذلك ؟ ألا تعدنى بهذا النصح يا من أنت على هذا الجانب العظيم من الذكاء ؟

أجبتها أقول :

ـ آه يا ناستنكا ! ما أسديت فى حياتى بنصيحة لأحد ، فليس لى

اذن تجربة ، ولكننى أعلم أننا اذا عشنا بعد اليوم معا فسنكون قادرين على أن ينصح كل منا الآخر كما لا يستطيع أحد أن ينصحه . أما بعد يا ناستنكا اللطيفة ، فأية نصيحة تريدين ؟ كلمينى بصراحة ، اننى فرح، اننى سعيد . اننى مرتاح البال مطمئن النفس . وهأنذا أصغى اليك ومأحدثك بغير اكراه .

قاطعتنى ناستنكا ضاحكة تقول :

ـ لا ، لا ، أنا لاأريد نصيحة ذكية فحسب بل أريد نصيحة صديق، نصيحة أخ ، كأنك قد أحببتنى طوال حياتك !

صحت أقول مفتونا :

ـ موافق يا ناستنكا ، موافق ، ولو كنت قد أحببتك منذ عشرين عاما لما كان حبى أقوى منه الآن .

قالت ناستنكا :

ـ هات يدك .

فأجبتها وأنا أمد اليها يدى :

ـ اليك يدى .

قالت :

ـ الآن أبدأ قصتى .

قصة ناستنكا

ـ لقد علمت نصف قصتي اذ علمت أن لي جدة عجوزا ...

قاطعتها أقول :

ـ اذا كان النصف الآخر موجزا ايجاز النصف الأول ...

ـ صه ! استمع ! ثم انني أطلب شرطا : أن لا تقاطعني قط ، والا لم أستطع أن أكمل . لي اذن جدة عجوز عشت معها منذ كنت بنية صغيرة بعد أن فقدت أبي وأمي في سن مبكرة جدا . وأغلب الظن أن جدتي كانت في الماضي غنية ، لأنها تحب أن تتذكر أيامها الخوالي التي كانت خيرا من أيامها الآن . وقد علمتني اللغة الفرنسية ، ثم سمت لي أستاذا ، فلما بلغت من عمري السنة الخامسة عشرة (وأنا اليوم في السابعة عشرة) انتهت دراستي . وفي ذلك الحين انما ارتكبت حماقات . لن أقول لك ماذا فعلت . ولكن اعلم ان الاخطاء التي قارفتها لم تكن كبيرة . غير أن جدتي نادتني في ذات صباح وقالت لي انها بسبب عماها لا تستطيع أن تراقبني ، ثم تناولت دبوسا شدتني به الى ثوبها ، وأعلنت لي عندئذ أننا سنظل نعيش على هذا النحو حياتنا كلها اذا لم يصبح سلوكي أقرب الى العقل والحكمة . معنى هذا أنني أصبحت لا أستطيع أن أسير خطوة واحدة لأعمل وأقرأ وأتعلم . أصبح عليَّ أن أمكث قرب جدتي دائما .

وفي ذات مرة أردت أن أستعمل المكر والحيلة ، فرجوت تكلا أن تأخذ مكاني . ان تكلا خادمتنا وهي صماء . حلت تكلا محلي ، ونامت جدتي على مقعدها . وأسرعت أنا أمضي الى صديقة لي ... وانتهى الأمر

نهاية سيئة فحين استيقظت جدتى ، كنت ما أزال غائبة فطلبت شيئا لظنها أننى قربها ، فأدركت تكلا ذلك ، ولكنها لم تستطع أن تلبى رغبتها ، وفكرت فيما عساها تفعل فانتهت الى هذا القرار : انتزعت الدبوس وهربت •••

توقفت ناستنكا عن الكلام وهى تنفجر ضاحكة فضحكت معها فسرعان ما كفت عن الضحك وقالت :

ـ لا تهزأ بجدتى • اننى أضحك لأن الأمر كان سخيفا •• وما عساى أفعل وهى عمياء ! ولكننى أحبها مع ذلك • ما أكثر ما وعظتنى يومئذ بعد أن أمرتنى أن أظل قربها ومنعتنى من أية حركة •

نسيت أن أقول لك اننا نملك بيتاً ، أعنى أن جدتى تملك بيتاً • هو بيت ليس له الا ثلاثة نوافذ على واجهته ، وهو من خشب كله ، طاعن فى السن كجدتى ، وفى أعلاه غرفة تحت سقف القرميد • وقد جاء مستأجر جديد يسكن تلك الغرفة •

قلت :

ـ اذن كان يسكنها قبل المستأجر الجديد مستأجر قديم •

أجابت :

ـ وكان يعرف كيف يصمت خيراً منك ! حقاً كان لا يكاد يحرك لسانه • أنه شيخ قصير أعجف أخرس أعمى أعرج ، لذلك لم يقو على البقاء طويلا فمات • فجاءنا بعده بقليل مستأجر جديد (اننا لا نستطيع أن نعيش بغير مستأجر لأن معاش جدتى هو موردنا الوحيد) • وشاءت المصادفة التى تشبه العمد أن يكون المستأجر الجديد شابا • ولم يكن هذا

المستاجر الشاب من مدينتنا ، وانما وقد اليها لقضاء زمن • واذ لم يساوم فقد أجرته جدتي الغرفة فورا ، ونادتني وسألتني : « قولي لي يا ناستنكا أهو شاب أم لا ؟ » فلم أشأ أن أكذب عليها فقلت : « لا يمكن القول انه فتى ولكنه ليس بالكهل • فامعنت جدتي تسالني : وهل هو حسن المنظر وسيم الطلعة ؟ فقلت لها : نعم هو كذلك ، لانني لم آشأ ان أكذب ايضا • فصاحت جدتي عندئذ تقول : « آه يا للمصيبة يا للمصيبة !! ••• لقد سألتك هذا السؤال يا ناستنكا حتى لا تنظرى اليه كثيرا • ويالهذا الزمان من زمان ! مستاجر حسن المظهر ثم هو لا يدفع أجرا أكبر ! ••• لم يكن الأمر كذلك في زمامنا ! » ان جدتي تتحدث دائما عن « العهد الخالي» الجميل ، فتقول فيما تقول : انها كانت يومئذ فتية ، وان الشمس كانت يومئذ شابة ، وان الشمس كانت أكثر دفئا • وكانت القشدة لا تفسد بسرعة كما تفسد في هذا الزمان • كان كل شيء حسنا في ذلك العهد الجميل ! وسكت أنا وفكرت : « لماذا تسألني جدتي هل هو جميل وهل هو فتى ؟ » • على أنني ألقيت هذا السؤال على نفسي ببساطة دون أية فكرة مبيتة ، واستمررت أعد الأبازيم ، وأحيك الجوارب ، ثم نسيت كل شيء •

وهذا هو المستأجر الجديد يجيء الينا في ذات صباح يذكّرنا بأن ورق جدران غرفته يجب تغييره ، فقالت لي جدتي عندئذ (وهي مكثار كما تعلم) : « هيا أسرعي الى غرفتي يا ناستنكا فأتني بكيسي » • فوثبت فورا وقد احمر وجهي لا أدري لماذا ، ناسيةً نسيانا كاملا أنني مشدودة الى ثوب جدتي بدبوس ، فبدلا من ان انتزع الدبوس في رفق حتى لايلاحظ المستأجر شيئا ، وثبت مسرعة ، فاذا بالمقعد وجدتي يتبعاني في رحلتي • فلما قدرت أن المستأجر قد عرف عني عندئذ كل شيء ازددت احمرارا ، وتسمرت في مكاني لا أتحرك ، وانفجرت باكية في نشيج • لقد شعرت

في تلك اللحظة بخجل رهيب وعار فظيـع ، وتمنيت لو أغـور مئة متر تحت الارض ! صاحت جدتي تسالني : « لماذا وقفت ؟ » فازداد بكائي.. فادرك المستأجر عندئذ اضطرابي ، فحياني وخـرج • ومنـذ ذلك الحين أصبح يتملكني قلق قاتل كلما سمعت ضجة في الدهليز ، فأقول لنفسي : « انه المستأجر » ، وأسارع فأنزع الدبوس برفق وهـدوء ، ولكنه كان لا يجيء • وانقضى أسبوعان ، وكلف المستأجر تكلا أن تقول لنـا ان لديه كتبا فرنسية كثيرة شائقة جدا ، وأن تسألنا هل تأذن لي جدتي أن أقرأ لها هذه الكتب لأسليها ، ولكن جـدتي سألت عن هذه الكتب أهي كتب فاضلة ، وأضافت تقول لي : « ان لم تكن فاضلة فلن تستطيعي أن تقرئيها يا ناستنكا ، والا علمتك الشر والرذيلة » •

سألتها :

ـ لماذا يا جدتي ؟ ما عسى أن تضمه هذه الكتب ؟

ـ هي كتب تتحدث عن رجال يغوون البنات الفاضلات ، اذ يعدونهن بالزواج ، فيأخذوهن من أسرهن ثم يهجـرون هاته الفتيـات الشـقيات ويتركونهن للقدر يعبث بهن على ما يشاء ، فيهلكن عندئذ في حياة بائسة تعيسة • لقد قرأت كثيرا من تلك الكتب التي بلغ مؤلفوها من الحـذق والبراعة في كتابتها أن المرء يقضي ليلته كلها يقرؤها ثم يقرؤها • هـل سمعت يا ناستنكا ؟ اياك أن تفتحي هذه الكتب ! ما هي الكتب التي أرسلها هذا الشاب !

ـ هي روايات بقلم والتر سكوت يا جدتي !

ـ والتر سكوت ؟ لا شك أن في الأمر شيئا • انظري يا ناستنكا .. هل ترين في هذه الكتب بطاقات صغيرة حلوة ؟

ـ لا يا جدتي ••• ما من بطاقة •••

ـ انظرى تحت الغلاف ! ان هؤلاء الأوغاد يضعونها فى كثير من الأحيان تحت الغلاف •••

ـ لا شيء تحت الغلاف أيضا يا جدتى •••

ـ حسن اذن ••

وشرعنا نقرأ والتر سكوت ، واستطعنا فى أقل من شهر أن نقرأ نصف الكتب التى أعارنا اياها جارنا ، ثم أرسل الينا كتبا أخرى فقرأت بوشكين ، فما هى الا فترة قصيرة حتى أصبحت لا أستغنى عن القراءة ، وبلغت من ذلك أننى كففت تماما عن التساؤل : « كيف أستطيع أن أتزوج أميرا صينيا ! » وفى ذات يوم التقيت بالمستأجر على السلم • كانت جدتى قد أرسلتنى فى أمر من الامور • وقف الشاب فاحمر وجهى واحمر وجهه أيضا ، ثم ابتسم وحيانى وسألنى عن أنباء جدتى وقال لى : « هل قرأت كتبى ! » فأجبته : «نعم» • فقال : « أيّها أحببت ؟ » • فقلت : « ايفانهويه * وبوشكين » •

كذلك انتهى حديثى •

وبعد أسبوع التقيت به مرة أخرى ، وكنت فى هذه المرة قد شعرت بالحاجة الى الخروج من أجل نفسى • كانت الساعة هى الثالثة ، وكان المستأجر عائدا الى المنزل • قال لى : « يومك سعيد » • فأجبته : « يومك سعيد » •

ـ أليس يضجرك كثيرا أن تلبثى مع جدتك طوال النهار ؟

فاحمر وجهى من هذا السؤال احمرارا قويا ، وشعرت بخجل شديد ، وأحزننى أن أرى الغرباء يسألوننى عن هذا الامر ، وأردت أن أنصرف دون اجابة ، ولكننى لم أقو على ذلك •

ـ اسمعي ! ان لك قلبا طيبا نبيلا ، فاعذريني اذا أنا قلت لك هـذا الكلام ! ولكنني أريد لك الخير أكثر من جدتك نفسها ! أليس لك أية صديقه ؟

فأجبته بأن لي صديقة هي ماشنكا . ولكنها سافرت الى بسكوف .

ـ هل تحبين أن تصحبيني الى المسرح ؟

ـ الى المسرح ؟ وجدتي ؟...

ـ تستطيعين أن تنصرفي .. بهدوء ورفق .. فما يشعر بخروجك أحد .

ـ لا ، لا أريد أن أخدعها ! الى اللقاء !

ـ الى اللقاء اذن !

كذلك أجاب دون أن يزيد شيئاً .

ولكنه جاء الينا بعد العشاء ، ولبث يتحدث مع جدتي مدة طويلة . وسألها هل هي تخرج أحيانا ؟ وهل لها أصدقاء ؟ ثم قال فجأة : « لقد استأجرت اليوم شرفة في الأوبرا . انهم يمثلون « حلاق اشبيلية * » . وكان يجب أن يصحبني بعض الاصـدقاء ، غير أن مانعـا طرأ في آخر لحظة ، فأصبحت الشرفة خالصة لي وحدي .

صاحت جدتي :

ـ « حلاق اشبيلية » ! ... تلك التي كانوا يمثلونها في العهد الماضي الجميل !

قال :

ـ نعم هي نفسها !

ونظر الىّ • وكنت أنا قد فهمت كل شيء ، فأخذ قلبي يخفق أملا ورجاء •••

قالت جدتي :

ـ آه لقد غنيت بنفسي دور « روزين » * في عرض ببيتنا ذات مرة ••• انني أعرف هذا الدور معرفة جيدة •••

قال المستأجر :

ـ تعالوا اذن معي ، والا ضاعت الأماكن سدى •

قالت الجدة :

ـ نعم هيا بنا ! ولِمَ لا ؟ ان ناستنكا لم تذهب يوما الى المسرح • ما أجملها متعة يا رب !

وما لبثنا أن ارتدينا ملابسنا وخرجنا • كانت جدتي تحب الموسيقى كثيرا • وكانت عدا ذلك طيبة القلب جدا • فهي تحب أن تسرني • وما كان لنا أن نذهب الى المسرح وحـــدنا • لا أستطيع أن أصف لك الأثر الذي أحدثته في نفسي أوبرا « حـلاق اشبيلية » • ولكن المســتأجر ظل طوال تلك السهرة ينظر الىّ بعينين فيهما من الطيبة ويحدثني بكلام فيه من العـــذوبة ما جعلني أدرك فورا أنه قد أراد أن يمتحنني في الصباح حين عرض علىّ أن أخرج معه وحيدة • ما كان أشد فرحي ! لقد رقدت على فراشي في تلك الليلة فخورة مفتونة • كان قلبي يخفق خفقانا شديدا، حتى لقد أصابتني حمى ، وحلمت طـول الليــل بـ « حلاق اشبيلية » • وقدرت عندئذ أن جارنا سيكثر اختلافه الينا وتردده علينا • ولكن ظني لم يصدق • لقد انقطع عن زيارتنا انقطاعا يشبه أن يكون تاما • لعله أصبح لا يزورنا الا مرة واحدة في الشهر • وهو لا يزورنا هذه الزيارة أيضا

الا ليدعونا الى المسرح • ذهبنا الى المسرح مرتين أخريين • ولاحظت أنه كان يشفق علي ويرأف بي ويرثي لحالي اذ يراني وحيدة مع جدتي دائماء ولكنني كنت أنا أفقد الهدوء يوما بعد يوم • وأصبح يستحيل عليّ أنأبقى ساكنه النفس مطمئنه البال ، حتى لقد صرت اعجز عن القراءة ، ولا أستطيع أن أعمل ؛ وكنت أبكي في كثير من الأحيان ! وسرعان مانحلت ، وأوشكت أن أمرض • لقد انتهى موسم المسارح • وأصبحنا لا نرى جارنا البتة ، فاذا صادفته مصادفة ، وذلك يكون على السلم دائما ، حياني صامتا برصانة وجد ، كأنه لا يريد أن يكلمني ، فأتسمر على الدرجة التي أكون عليها من السلم ، بينما يكون هو قد خرج ، وكنت أحمر عندئذ احمرارا شديدا ، لأنني كنت لا أراه الا ويصعد الدم الى رأسي •

هأنذا أوشك أن أختم قصتي • منذ سنة تماما في شهر أيار (مايو) جاء المستأجر يكلم جدتي • كان قد سوّى جميع شؤونه وأعماله ، فعليه أن يعود الى موسكو • وسيمكث هنالك سنة • فلما سمعته يقول ذلك الكلام شحب لوني ، وتهاويت على كرسي كالميتة • لم تلاحظ جدتي شيئا بطبيعة الحال ، أما هو فقد خرج بعد أن حيانا مودعا •

ماذا كان عليّ أن أعمل ؟ فكرت طويلا ، طويلا ••• ثم عزمت أمري أخيرا ••• قلت لنفسي : ما دام مسافرا في الغد ، فسوف اراه متى نامت جدتي ••• وذلك ما وقع • حزمت جميع أثوابي وملابسي في صرة ، وصعدت اليه وأنا أقرب الى الموت مني الى الحياة • أحسب أني سلخت ساعة برمتها في صعود السلم ، فحين فتحت عليه الباب فأبصرني، أطلق صرخة • لا شك أنه ظنني شبحا من الاشباح • ذلك أنني كنت لا أكاد أستطيع الوقوف على ساقي • فلما رآني على هذه الحال أسرع يجيء بماء لينعشني به • كان قلبي يبلغ من شدة الخفقان أن صداعا ألم

برأسى وأننى أصبحت لا أفهم ما يجرى من حولى • وثبت الى رشدى بعد قليل ، فوضعت صرتى على السرير ، وجلست غارقة فى دموعى ، دافنة رأسى فى يديه • وسرعان ما فهم هو كل شىء • فها هو ذا يقف أمامى شاحب الوجه ينظر الىّ نظرة تبلغ من الحزن أن قلبى تفطر لها •

قال لى :

ـ ناستنكا ! اسمعينى • لا أستطيع شيئا ! اننى فقير ، وليس لى أى مركز ، فكيف عسانا نعيش اذا أنا تزوجتك ؟

تحدثنا طويلا ، وفقدت صوابى آخر الامر فقدانا تاما ،فأعلنت له أننى لن أستطيع أن أعيش بعد الآن مع جدتى • قلت له اننى سأهرب فلست أريد أن أبقى مشدودة الى جدتى بدبوس ، واننى سأتبعه الى موسكو شاء أم أبى ، فقد أصبحت لا أستطيع أن أستغنى عنه • كان الخجل والحب والكبرياء ، كان كل شىء فى نفسى يتكلم فى آن واحد • وتهالكت على السرير مرتعشة أشد الارتعاش • كنت أشعر بذعر من تصورى رفضه •

لبث صامتا بضع لحظات ، ثم نهض واقترب منى ، وتناول يدى ، وقال لى منفعلا أشد الانفعال :

ـ عزيزتى الطيبة ناستنكا ، أقسم لك أننى اذا استطعت يوما أن أتزوج ، فلسوف تحققين أنت وحدك سعادتى • نعم انت وحدك ••• اسمعى ما سأقوله لك : أنا مسافر الى موسكو ، وسأقضى هنالك سنة تماماء وآمل أن أسوى أمورى ، فاذا عدت بعدئذ فوجدت أنك لم تنسينى ، سعدنا معا ، أقسم لك على ذلك • أما الآن فلست أستطيع ولا يحق لى أن أعدك بشىء • على أننى أؤكد لك أننا اذا لم نحقق سعادتنا فى السنة

القادمة ، فسنحققها فى يوم من الايام حتما ، هـــذا اذا لم تؤثرى علىّ شخصا آخر بطبيعة الحال ! ذلك أننى لا أستطيع ولا أجرؤ أن أربطك بعهد !

تلك كانت أقواله . وسافر فى الغـداة . اتفقنـا على أن لا أحدث جدتى بشىء . فكذلك أراد . هذه هى قصتى أنهيت سردها لك تقريبا . وقد تصرمت السنة وعاد صاحبى الى بطرسبرج وهو هنا منذ ثلاثة أيام ، و ...

صحت أسألها مستعجلا معرفة النهاية :

ـ وماذا ؟

فأجابت ناستنكا وكأنها تجاهد نفسها ..

ـ ما رأيته بعد ! ولا تلقيت منه كلمة ! ... لا شىء ...

وصمتت وخفضت رأسها وانفجرت تنتحب انتحـابا قويا تمزق له قلبى .

لم أكن أتوقع هذه الخاتمة .

قلت بصوت وجل متردد :

ـ ناستنكا ! لا تبكى ! ناشدتك الله ! لعله لم يصل بعد ، مايدريك ؟

صاحت ناستنكا تقول :

ـ بل وصل . انه هنا . أعرف ذلك . ولقد وضعنا هذا الشرط فى الليلة التى سبقت سفره حين تنزهنا هنا على رصيف النهر . خرجنـا من البيت معا بعد حديثنا ، وكانت الساعة العاشرة ، وجلسنا على هذا المقعـد

وقد كففت عن البكاء . كنت سعيدة بالاصغاء الى كلامه ... كل السعادة ... قال انه سيأتى الينا متى عاد ، فاذا كنت ما أزال أحبه كاشفنا جدتى بكل شيء . وقد وصل ، فأنا أعرف ذلك ، ولم يبلغنى منه شيء بعد ...

قالت ذلك وطفقت تبكى من جديد .

صحت أقول وانبا وقد تملكنى غم شديد :

ـ رباه ! ألا نستطيع أن نفعل شيئا لدفع هذا الكرب ؟ قولى ياناستنكا: ألا يمكننى أن أذهب اليه ؟

فأجابتنى وهى ترفع رأسها بسرعة وقوة :

ـ أهذا معقول ؟

قلت وقد عدت الى صوابى :

ـ طبعا لا ! ولكنك تستطيعين أن تكتبى اليه رسالة .

فأجابت بلهجة قاطعة وهى تخفض رأسها من جديد متحاشية نظرتى :

ـ لا ! هذا لا يمكن أن يكون .

فتابعت كلامى ملحاً :

ـ لماذا يا ناستنكا ؟ ثقى بى ... فلن أسيء نصحك . ان من الممكن أن يُسوَّى كل شيء . لقد خطوتِ الخطوة الاولى ، فلماذا تحجمين الآن ؟

ـ لا أستطيع ! لا أستطيع ! لا أريد أن أكرهه اكراها ...

قاطعتها أقول مبتسما :

ـ يا عزيزتي الصغيرة ناستنكا ! أنت مخطئة ! ان من حقك أن تخاطبيه ، لأنه قطع لك عهداً ، ثم انني أفهم من كل ما قصصته عليّ أنه رجل مرهف العواطف رقيق المشاعر .

وتابعت أقول وأنا أزداد اقتناعا بمنطق براهيني :

ـ لقد كان سلوكه حسنا جدا : قطع لك على نفسه عهدا ، وأعلن أنه لن يتزوج غيرك ، وترك لك حرية رفضه اذا شئت ... فبوسعك اذن أن تقومي بالخطوة الأولى ، ذلك من حقك تماما ما دمت تمتازين عليه بقدرتك على أن تجعليه في حل من عهده ...

ـ ولكن ما عساك تكتب ؟

ـ أكتب ماذا ؟

ـ الرسالة .

ـ أكتب هكذا : « السيد المحترم ... »

ـ هل ضروري أن تكتب : « السيد المحترم ؟ »

ـ تماما ... ثم انني أرى ...

ـ طيب .. طيب .. وماذا تكتب بعد ذلك ؟

ـ «السيد المحترم ! .. معذرة اذا أنا ...» لا .. لا داعي الى أي اعتذار .. فالأمر مسوغ من تلقاء نفسه :

« اكتبي فقط ما يلي » :

« أكتب اليك راجية أن تغفر لي نفاد صبري ، فان الأمل قد جعلني سعيدة سنة بكاملها . أفأكون مذنبة اذا أنا لم أطق احتمال الشك يوما

واحدا ؟ ترى هل تغيرت نياتك وقد عدت ؟ ان رسالتى ستنبئك فى هذه الحالة بأننى لا أدينك ، فليس يُدان امرؤ لأنه لا يملك زمام قلبه • ذلك هو القدر !

« انك امرؤ رفيع العواطف ، فلن تبتسم اذن حين تقرأ هذه الاسطر التى تدل على نفاد الصبر ولن ترميها الى الارض • تذكر أن فتاة بائسة هى التى تكتب هذه الاسطر • اننى وحيدة وليس لى أحد يرشدنى ويسدد خطاى ويسدى الىّ النصح • ولم أستطع أبدا أن أسيطر على قلبى ، فسامحنى اذا كان قد نبت شىء من الشك فى هذا القلب • انك لا يمكن أن تريد اذلال تلك التى أحبتك ذلك الحب كله وما تزال تحبك ، لا تريد اذلالها ولو بالخيال » •

هتفت ناستنكا تقول وقد سطع الفرح بعينيها :

ـ نعم •• نعم •• ذلك ما كنت أفكر فيه • لقد وجدت لى مخرجا من شكوكى ! ان الله نفسه قد أرسلك الىّ ! أشكرك أجزل الشكر ، وأعرب لك عن أعمق الامتنان •

ـ لماذا أرسلنى الله اليك ؟

كذلك أجبتها وقد أسعدنى أن أتأمل وجهها الصغير الذى أشرق بشراً وبهجة •

قالت :

ـ من أجل هذا كله !

ـ آه يا ناستنكا ! اننى أنا الذى أشكر لك أن قد أتيح لى أن ألقاك ، ولسوف تحيين دائما فى ذكراى •

ـ كفى ! كفى ! استمع الىَّ الآن ! قلت لك اننا قد تواضعنا على هذا الشرط ، وهو أن يبلغنى عودته متى عاد برسالة يودعها احدى صديقاتى المخلصات التى تجهل عنا كل شىء ، فاذا لم يستطع أن يكتب لأن المرء لا يقدر أن يقول كل شىء فى رسالة ، جاء الى هذا المكان نفسه يوم وصوله ذاته فى الساعة العاشرة • ولقد بلغنى نبأ وصوله • ولكننى لم أتلق منه شيئا ، ولست أستطيع أن أترك جدتى فى الصباح ، فانقل أنت هذه الرسالة الى صديقتى غدا فى ساعة مبكرة ، فتتولى هى ارسالها اليه ، فاذا جاء منه جواب ، حملته الىَّ بنفسك فى مساء غد •

ـ ولكن الرسالة لا بد من كتابتها ، فلن نستطيع أن نتلقى الجواب اذن الا بعد غد •

فأجابت تقول وقد اضطربت بعض الاضطراب :

ـ الرسالة ••• الرسالة •• ولكن •••

ولم تتم كلامها بل أشاحت وجهها واحمرت حتى أصبحت بلون الورد ، ثم اذا أنا أشعر برسالة توضع فى يدى • لا شك أنها كُتبت وختمت منذ مدة ؟ وبرقت فى خيالى ذكرى حبيبة لطيفة :

ـ رو ••• زين

كذلك غنيت ، ثم غنينا معا روزين ، وأوشكت أن أعانقها فى غمرة هذا الفرح الذى ملأ نفسى • وكانت قد ازدادت احمرارا • وهى تضحك الآن من خلال دموعها التى ترتعش على أهدابها الجميلة كأنها اللآلىء •

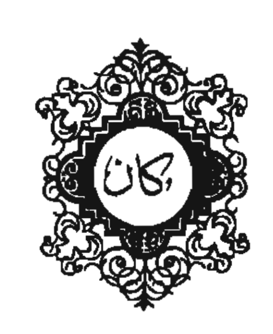
وقالت أخيراً بسرعة :

كفى .. كفى ! .. الى اللقاء ! اليك الرسالة ! واليك العنوان الذى سننقلها اليه ! الى اللقاء ! الى الغد ! وضغطت يدى ضغطاً قوياً ، وحيتنى مودعةً بحركة من رأسها وانصرفت تشق طريقها نحو الجادة الصغرى كالسهم سرعةً . لبثت فى مكانى زمناً طويلا أشيّعها بنظراتى .

ـ الى الغد ! ..

كذلك ترجعت هذه الكلمات فى نفسى حين غابت عن بصرى .

الليلة الثالثة



النهار حزينا ممطرا لا تتخلله فترات صحو ، كما ستكون شيخوختي . ان أفكارا غريبة قد عذبت روحي وان مسائل مبهمة مضطربة قد هزت فكرى ، وأنا لا أقوى على حلها ، لا ولا أرغب في حلها .

لن نلتقى اليوم . وحين افترقنا أمس كانت السحب تغطى السماء وكان الضباب ينتشر في الفضاء .قلت لها : ان الجو سيكون في الغد رديئا. فلم تجب بشيء . ذلك أن هذا النهار سيكون مشرقا بضوء الشمس فى نظرها ، فما من غيمة يمكن أن تعكر سعادتها . لقد قالت لى :

ـ اذا أمطرت فلن نلتقى لأننى سأمكث فى بيتى .

ولكننى أملت أن لا تفطن الى هطول المطر ، وأن تأتى مع ذلك . وأمس كان لقاؤنا الثالث ، كانت ليلتنا البيضاء الثالثة . لشد ما يتفتح الانسان ويزدهر ويزداد جمالا حين يملأ الفرح قلبه وحين تفيض نفسه بالسعادة !

وكأن القلوب تريد أن ينتشر بعضها فى بعض ، فترغب أن ترى من

حولها البهجة والضحك ! وما أشد سريان هذا الفرح بالعدوى !

كان في أقوال ناستنكا لي كثير من حنان وطيبة وحدب .. وكانت نفسها تفيض مداراة لي ، فهي تلاطفني وتشجع قلبي . وما أروع الفتنة الاخاذة في ذلك الدلال والغنج اللذين كانت سعادتها تضفيهما عليها ؟ حتى لقد نسيت ... فخطر ببالي في بعض اللحظات أن ...

يا رب ! كيف أمكن أن يدور في خلدي ذلك ! كيف أمكن أن أكون أعمى هذه العماوة كلها ، بينما لم يكن شيء لي أنا ، وكان كل شيء للآخر . لم يكن حنانها علي ولم تكن ملاطفاتها لي ولم يكن حبها اياي ، لم يكن هذا كله الا ثمرة فرحها بلقائها القريب معه ، والا الرغبة في اشراكي في سعادتها . فلما رأت انه لم يأت ، وأننا انتظرنا عبثا ، غدت قاتمة خجلة وجلة . لم تعد حركاتها ولا أقوالها منطلقة خفيفة فرحة كما كانت من قبل . والغريب أنها ضاعفت ملاطفاتها لي كأنها تريد على غير شعور منها أن تملأني بمخاوفها وبرغبتها . وفجأة بلغت صغيرتي ناستنكا من فرط الخجل والخشية والخوف أنهاأدركت أخيرا فيما أعتقد أنني أحبهاوانني أشفق على حبي البائس . فكذلك نحن : نشعر بألم الآخرين شعورا أعمق حين نكون أشقياء معذبين . ان عاطفتنا تشتد عندئذ وتقوى ...

لقد جئت اليها طافح القلب . وقاسيت كثيرا من العناء في انتظار لحظة اللقاء . لم أكن أتنبأ بما سأشعر به حين ذاك ، ولم أكن أوجس الخاتمة ، وكانت هي مشرقة الوجه تنتظر جوابه . وكان الجواب أن يحضر هو نفسه ، الانسان الذي تحبه . وصلت قبلي بساعة ، فكانت في أول الامر تضحك لكل شيء ، لكل كلمة من كلماتي . وقد بدأت أتكلم ثم سكت فجأة .

قالت :

ـ هل تعلم لماذا أنا سعيدة هذه السعادة كلها برؤيتك ؟ هل تعلم لماذا أحبك هذا الحب كله ؟

قلت وقد اختلج قلبي :

ـ لماذا ؟

ـ انني أحبك لأنك لم تقع في حبي . لو كان شخص آخر غيرك في مكانك لما تركني وشأني هادئة البال بل لعذبني عذابا شديدا ولسقط مريضا ... انك طيب جدا .

قالت ذلك وضغطت يدي ضغطا بلغ من القوة أنني كدت أصرخ . وانفجرت ضاحكة . قالت بعد لحظات بصوت رصين :

ـ ولكنك صديقي ، أرسلك الله الي . ما كان عسى أن تصير اليه حالي لولاك الآن ؟ ألا ما أعظم اخلاصك وتنزهك عن الغرض! ألا ماأطهر عاطفتك وأصفاها وأنقاها ! حين سأتزوج سنبقى صديقين ، سنبقى كأخوين بل أكثر . وسأمحضك من الحب بقدر ما أمحضه هو تقريبا ..

حزنت حزنا رهيبا وأنا أسمع هذه الكلمات . ومع ذلك فان شيئا يشبه أن يكون ضحكة داخلية قد تحرك في نفسي . قلت لها :

ـ أنت خائفة . انك تقدرين أن الآخر قد لا يأتي ، أليس كذلك ؟

أجابت :

ـ ما هذا الكلام الذي تقول ؟ لو كنت أقل سعادة فلربما كنت أبكي من سوء ظنك هذا ومن ملاماتك هذه ! على أنك قد أنبت في نفسي معاني سأفكر فيها في المستقبل ، بل انني أستطيع أن أعترف لك منذ الآن بأن فيما قلته شيئا من حق . انني أنتظر ، وأحسب أنني مسرفة في الابتهاج والفرح . ولكن كفانا حديثا عن العواطف !

وسمعنا في هذه اللحظة وقع خطوات ، وظهر لنا رجل في الظلام.

كان مقبلا علينا • ارتجفنا كلانا • وأوشكت هي أن تطلق صرخة • تركت يدها ،-وأردت أن أنصرف ، ولكننا كنا قد أخطأنا الظن فانه لم يكن هو القادم •

قالت وهي تمد الىّ يدها من جديد :

ـ لماذا هذه الخشية ؟ لماذا نبذت يدى ؟ لسوف نراه معا • انى أريد أن يرى كم يحب أحدنا الآخر •

صحت أقول :

ـ كم يحب أحدنا الآخر ؟

وقلت في نفسي : « آه يا ناستنكا ! ما أكثر الأشياء التى كشفت عنها في هذه الأقوال ! ان هذا الحب يجمد القلوب ويشجى النفوس • ان يدك باردة ويدى تحترق كالجمر ! ما أعماك يا ناستنكا ! ••• ألا ان السعداء لا يطاقون ولا يحتملون ! ولكنني لا أستطيع أن أزعل » •

وطفح قلبى أخيرا وقلت :

ـ اسمعى يا ناستنكا ! هل تعلمين كيف قضيت نهارى ؟

ـ كيف قضيت نهارك ؟ قل بسرعة ••• لماذا ظللت صامتا حتى الآن ؟

ـ أولا : قمت بما كلفتنى به يا ناستنكا • نقلت الرسالة الى صديقتك ثم عدت الى بيتى فرقدت •••

قاطعتنى ضاحكة :

ـ أهذا كل شيء ؟

أجبتها وأنا أكظم انفعالى الذى فضحته دموع غبية ترقــرفت فى عينى :

ـ نعم هـــذا كل شيء تقريبا ••• واستيقظت قبـل أزوف موعدنا بساعة ، وكان يخيل الىّ أننى لم أنم • لا أدرى ماذا حدث لى • لم يبق للزمان عندى وجود ، بعد أن أصبح كل احساس فريد أعانيه وكل شعور جديد أكابده لا بد أن يبقى فى نفسى الى الأبد ! لكأن الحياة كلهــا قد توقفت • وتراءى لى حين استيقظت أننى اســـمع منـذ مدة طويلة أغنية رخيمة عذبة كأنها كانت منسية ، وكأنها كانت تريد أن تنطلق من نفسى منذ الأبد •••

قاطعتنى ناستنكا تقول :

ـ رباه ! ماذا دهاك ؟ اننى لا أفهم •••

ـ أردت أن أطلعك على هذه العواطف الغريبة •

كذلك أجبتها بصوت شاك يختفى فيه أمل بعيد جدا •

فقالت وقد حزرت الماكرة الصغيرة ما أريد أن أقوله فورا :

ـ كفى ! اسكت !•••

وسرعان ما أصبحت طلقة اللسان كثيرة الكلام فرحة النفس عابثــة متخابثة • فتناولت ذراعى ، وأخذت تضحك ، ثم تضحك ، وتسألنى أن أضحك أيضا ، وأصبحت كل كلمة من كلماتى الخجلى تثير فيهــا هذا المرح الصاخب نفسه ••• وبدأت أشعر بشيء من الغضب • لقــد كانت حينئذ فتاة مغناجا •

قالت :

ـ هل تعلم أننى مستاءة قليلا من أنك لم تتــوله بحبى • ما أصعب

فهم الرجل ! ولكنك يا أيها السيد الصامد لا تستطيع الا أن تحمد لى بساطتى • فأنا أقول كل شىء ، أية كانت السخافة التى تخطر ببالى •

قلت وأنا أسمع أصوات الناقوس البطيئة تترجع فى برج المدينة :

ـ أعتقد أن الساعة الحادية عشرة تدق •

فصمتت فجأة ، وأخذت تعدُّ دقات الساعة ، وقالت أخيرا بصوت متردد خجلان :

ـ نعم هى الساعة الحادية عشرة •

ندمت على أننى أرعبتها واضطررتها الى عد دقات الساعة ، ولمت نفسى على روح الشر هذه التى دفعتنى الى ذلك • أشفقت عليها فأخذت أهدئها محاولا أن أعلل غياب ذلك الذى كانت تنتظره • وجدت براهين واستخلصت نتائج ، وما من أحد يمكن أن يُخدع بأيسر مما كان يمكن أن تُخدع به هى فى تلك الساعة • ذلك أن جميع الناس فى مثل هذه اللحظات يصغون فرحين الى العزاء الممكن ، بل الى ظل عذر يخطر بالبال •

وتابعت أقول :

ـ نعم ليس فى هذا غرابة • ما كان يمكن أن يأتى ! لقد ضللتنى يا ناستنكا ••• لذلك أخطأت تقدير الزمان ••• انه لم يكد يستلم الرسالة • فافرضى أنه لا يستطيع أن يجىء وأنه يريد أن يرد برسالة ، ففى هذه الحالة لا يمكن أن تصل رسالته الا غدا • سأمضى أستلمها فى ساعة مبكرة جدا من صباح الغد • فأنبئك بذلك على الفور • ثم ان هنالك ألف احتمال ممكن : فلعله لم يعد الى البيت ، فلم يستلم الرسالة • كل شىء يمكن أن يحدث •

أجابت :

ـ نعم نعم اننى لم أفكر . كل شىء يمكن أن يحدث .

وكانت تتكلم سريعا بصوت حـزرت فيـه فكرة مختلفـة بعيدة . وأضافت تقول :

ـ اذن ستـذهب فى أيكر ساعة ثم تنبئنى هـل هنالك شىء . أنت تعرف عنوانى .

قالت ذلك وكررت ذكر عنوانها ثم أصبحت دمثـة لطيفة خجـولة معى ... وكانت تصغى الىّ بانتباه ولكن حين سألتها سؤالا على حين فجأة سكتت وأشاحت بوجهها ، فلما نظرت فى عينيها أدركت أن ما خطر ببالى صحيح ... لقد كانت تبكى حقا .

ـ ما هذا ؟ ألا انك لطفلة ! لا تبكى ، أرجوك !

فحاولت أن تبتسم ، ولكن ذقنها كانت ترتجف وكان صدرها ينهد لاهثا .

قالت بعد دقيقة صمت :

ـ اننى أفكر فيك . انك طيب القلب نبيل النفس . أيكون قلبى من حجر فما أتأثر من ذلك ؟ هـل تعلم فيم أفكر ؟ لقـد وازنت بينكما فى ذهنى . لماذا ليس هو أنت ؟ لماذا لا يشبهك ؟ انك خير منه ، رغم أننى أحبه أكثر مما أحبك .

لم أجب بشىء وكان يبدو أنها تنتظر جوابى .

قالت :

ـ لعلنى لم أفهمه بعد فهما كافيا . اننى لا أعرفه معرفة تامة . كنت

أخشاه دائما ، فقد كان شديد الجد ، أشبه بالمتكبر ، ولكنه يظهر بهـذا المظهر ، أما قلبه فأرق من قلبي •• انني أتذكر نظرته حين جئت اليـه حاملةً صرتي •• انني أحترمه كثيرا • انه أعلى مني •

ـ لا يا ناستنكا ! أنت تحبينه أكثر من أي شيء في العالم ، تحبينـه أكثر كثيرا مما تحبين نفسك •

أجابت بسذاجة :

ـ نعم ، ربما ••• ولكن اسمع ! لن أتحدث عنه بل سأقول كـلاما عاما ••• انني أفكر في هذا الامر منذ زمن طويل : لماذا لا نكون جميعـا كالخوة مع اخوة ؟ لماذا يحتفظ دائما أفضلنا بسرٍ في نفسه ؟ لماذا هو يلزم الصمت ؟ لماذا لا يقول احـدنا فـورا كل ما في قلبه حين يكون واثقا أن الآخر سيفهمه ؟ ان جميع النـــاس يبدون أقسى كثـيرا مما هم قساة في الواقع ، ويتخيلون أنهم يخفضون قيمة عاطفتهم اذا هم عبروا عنها بسرعة مسرفة •

ـ آه يا ناستنكا ! انك على حق ! ولكن البواعث كثيرة • لقد شعرت أنا نفسي أن عليّ في هذه اللحظة أن أخرس طائفة كبيرة من العواطف •

أجابت بانفعال :

ـ لا •• لا •• أنت لا تشبه الآخرين •• لا أعرف كيف أقول لك ما أشعر به •••

قالت ذلك ثم أضافت خجلة وهي ترمقني بنظرة مختلسة :

ـ انك الآن تضحي بنفسك في سبيلي ! واغفر لي أن أخاطبـك على هذا النحو ••• ولكنني فتاة بسيطة لم أر الناس الا قليلا ، ولا أعـرف دائما أن أعبر عما بنفسي كما يجب أن أعبر عنه • (قالت ذلك بصـــوت

مرتعش تختفى وراءه عاطفة قوية وكانت تحاول أن تبتسم) • ولكننى أريد أن أفصح لك عن كل امتنانى وشكرى •• اننى أحس بكل ماتفعله• وأسأل الله أن يهب لك السعادة جزاء هذا النبل وهذه الشهامة ••• ان ما قصصته علىّ فى ذلك اليوم عن الرجل الحالم لا يتناولك قط • أنت الآن أحسن حالا • لقد تغيرت فلم تبق ذلك الرجل الذى وصفته لى • اذا أحببت يوما فاننى أتمنى لك أن تتمتع بالسعادة الكبرى التى تستحقها ، ولست أتمنى لها هى شيئا ، لأنها ستكون سعيدة معك • أنا أعرف ذلك ، فأنا امرأة وفى وسعك أن تصدق ما أقول •

فرغت من الكلام وصمتت وضغطت يدى ضغطا قويا ، وبلغت أنا من شدة الانفعال أننى لم أستطع أن أجيب •

وانقضت لحظات •••

قالت أخيرا وهى ترفع رأسها :

ـ لن يأتى اليوم فالوقت متأخر •

فقلت لها بصوت جازم ولهجة قاطعة :

ـ سيأتى غدا •

فقالت جذلى :

ـ نعم ! أنا مقتنعة بذلك ••• الى اللقاء ! الى الغد ! وقد لا آتى اذا أمطرت السماء ، ولكننى سأجىء بعد غد ، مهما يقع لى ، فتعال حتما ، فاننى أريد أن أراك لأتحدث معك أيضا •

فلما افترقنا مدت الىّ يدها وتمتمت وهى تنظر فى عينى :

ـ لأننا سنظل دائما معا ، أليس كذلك ؟

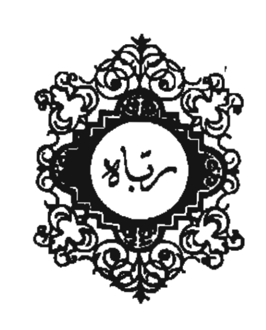
ـ آه يا ناستنكا ! لو علمت كم أنا وحيد الآن •

حين دقت الساعة التاسعة لم أستطع أن أمكث في غرفتي ، فارتديت ثيابي ، وخرجت رغم سوء الجو ، وذهبت الى هناك أجلس على مقعدنا • وأردت أن أجتاز شارع بيتهم ولكنني خجلت • فرجعت دون أن أنظر الى نوافذ البيت ، رجعت الى غرفتي وقد استبد بي كرب شديد لم أعرف مثله في حياتي قط • وكان الجو كالحا جهما رطبا ، ولولا ذلك لخرجت أتنزه على شواطىء النهر طول الليل ••

ولكن الى الغد ، الى الغد ، غدا ستقص عليّ كل شيء •

ومع ذلك لم تصل منه رسالة اليوم • ولكن أليس هذا في طبيعة الامور • انهما الآن معا •

الليلة الرابعة



يا لتلك النهاية التى انتهى اليها ذلك الأمر كله ! جئت فى الساعة التاسعة . كانت هناك . رأيتها من بعيد . انها متكئة على افريز الجسر كما كانت متكئة عليه فى اليوم الاول . ولم تسمع وقع خطواتى وأنا أقترب منها . ناديتها مجاهدا نفسى للتغلب على انفعالى .

ـ ناستنكا !

فالتفتت بسرعة وسألتنى قائلة :

ـ هيه ! هيه ! قل .. أسرع .

فنظرت اليها مشدوها .

ـ أين الرسالة ! أهى معك ؟

كذلك رددت تقول مستندة على الافريز .

قلت أخيرا :

ـ لا ! ليس معى أية رسالة . ألم يأت هو اذن ؟

شحب لونها شحوبا رهيبا . ولبثت تنظر الىّ جامدة لا تتحرك زمنا طويلا . لقد حطمت آخر رجاء لها .

وتمتمت أخيرا تقول :

ـ طيب .. لا باس .. فليفعل ما يشاء . ما دام يهجرني هكذا ...

وخفضت عينيها ، ثم أرادت أن ترفع بصرها نحـــوى ، ولكنهـا لم تستطع . جاهدت انفعالها بضع لحظات أخرى ، ثم وضعت كوعيهـا على افريز رصيف النهر وأجهشت تبكي منتحبة .

قلت لها :

ـ هدئي روعك ! هدئي نفسك ! أرجوك .. أضرع اليك .

ولكنني لم أقو على الاستمرار في الكلام . وما كان عساى أن أقول لها ؟ قالت من خلال دموعها :

ـ لا تحاول أن تعزيني وأن تواسيني . لا تحدثني عنه بعد الآن ! لا تقل لى بعد هذه اللحظة انه سيأتي وانه لم يهجرني بقسوة ! ... لماذا ؟ لماذا ؟ انني لم أكتب اليـه شـيئا في تلك الرسالة . ما كان لتلك الرسالة الشقية أن ...

وعلا نحيبها فلم أستطع أن أسمع تتمة كلامها ، وكان قلبي يتمـزق وأنا أنظر اليها .

وعادت تقول من جديد :

ـ ماأقسى هذا ! تلك قسوة فوق قدرة الانسان على احتمال القسوة . أما من سطر ؟ أما من كلمة ؟ كان في وسعه أن يجيب بأنه في غير حاجة اليّ . كان في وسعه أن يصدني . ولكنه لم يفعل شيئا طوال هذه الايام الثلاثة . ما أسهل عليه أن يذل وأن يؤذى فتاة مسكينة عزلاء كل ذنبهـا أنها تحبه ! آه كم قاسيت من آلام في هذه الايام الاخيرة ! يا رب يا رب!

يا رب .. لا أريد أن أتذكر أنني جئت اليه وأقبلت عليه وأذللت نفسي أمامه وتضرعت باكية أسأله قليلا من حب ... وماذا بعد ؟

قالت ذلك ثم أردفت وهي تنظر الىّ وقد سطعت عيناها السوداوان :

ـ ولكن اسمع ! ما ينبغي أن يكون الامر هكذا ! ذلك غير طبيعي ! لا بد أن أحدنا قد أخطأ ... لعله لم يتلق الرسالة ... لعله يجهل كل شيء حتى الآن ... ما رأيك ؟ مستحيل أن يكون الامر غير ذلك ! اسرح لي ، أرجوك ... أنا لا أستطيع أن أفهم سلوكا يبلغ هذا المبلغ من القسوة ... هل يعقل أن لا يكتب لي كلمة واحدة ؟ فأين الشفقة بالبشر اذن ؟ أيكون أحد قد قال له سوءا في حقي ؟ (كذلك صاحت) ما رأيك ؟

ـ ناستنكا ! سأذهب اليه غدا موفداً منك .

ـ ثم ماذا ؟

ـ سأسأله أن يقول لي كل شيء ... وأحكي له ...

ـ ثم ماذا ؟ .. ثم ماذا ؟

ـ اكتبي له رسالة أخرى ... لا تقولي لا . لا ترفضي . سوف أجبره على احترامك يا ناستنكا . وسوف نعلم كل شيء .. واذا ..

ـ لا يا صديقي ، لا ! كفى ! لن أكتب له كلمة واحدة ... لن أكتب له سطرا واحدا ... كفى ! انني لا أعرفه ... أصبحت لا أحبه .. سوف أنساه ... و

لم تتم جملتها .

قلت لها وأنا أجلسها على المقعد :

ـ هدئي نفسك ، هدئي نفسك ، اجلسي هنا .

ـ أنا هادئة • كفى ! لا ضير ••• هى دموع ثم تجف ••• أتظن أننى سأنتحر ؟ أتحسب أننى سوف أرمى نفسى فى الماء ؟

كان قلبى طافحا • أردت أن أتكلم ، ولكننى لم أقو على قول كلمة واحدة •

وتابعت تقول وهى تتناول يدى :

ـ اسمع ! لو كنتَ فى مكانه أكنت تتصرف تصرفه ؟ أكنت تنبذ الفتاة التى جاءت اليك من تلقاء نفسها ؟ أكنت تصب احتقارك على قلبها الضعيف الغبى ؟ أما كنت تحمى هذه المرأة ؟ أما كنت تتذكر أنها وحيدة ليس لها من يرشدها ويسدد خطاها ، ولا هى قادرة على مجاهدة حبها لك ؟ وليس لها من ذنب ••• ليس لها من ذنب ••• ولم تصنع شيئا يمكن أن ••• آه ! يا رب ! يا رب !

صحت أخيرا أقول وقد أصبحت عاجزا عن السيطرة على انفعالى :

ـ ناستنكا ! انك تمزقين نفسى ! انك تحطمين قلبى ! انك تقتليننى يا ناستنكا ! أصبحت لا أطيق أن أصمت ، ولا بد لى أن أقول أخيرا كل ما يخنقنى هنا فى قلبى •••

وكنت قد نهضت عن مكانى فتناولت يدى ونظرت الىَّ مدهوشة وسألتنى :

ـ ما بك ؟

قلت بصوت حاسم :

ـ اسمعينى يا ناستنكا ! ان كل ما سأقوله لك الآن سخيف غبى لا سبيل الى تحقيقه • أنا أعلم أن هذا لا يمكن أن يقع ، ولكننى لا أستطيع

أن أصمت فباسم آلامك وما تقاسين من ألوان العذاب ، أضرع اليك أن تغفرى لى ..

سالتنى وقد انقطعت عن البكاء والتمع فى عينيها الاستطلاع :

ـ ما الذى تريد أن تقوله لى ؟

ـ هو أمر لا يتحقق ... ولكننى أحبك ... هأنذا قد قلت كل شىء (وحركت يدى باشارة معبرة) فهل عليك بعد الآن أن تبوحى لى بشىء ، أن تفضى الى بسر من أسرارك ، وأن تصغى الى ما سأقوله لك .

قاطعتنى تقول :

ـ لم لا ؟ أنا أعرف منذ زمان أنك تحبنى ، ولكن كان يخيل الىّ أنك تحبنى هكذا .. حبا بسيطا .. آه يا رب ! يا رب !

ـ كان الامر بسيطا فى البداية . أما الآن فأنا أشبه ناستنكا حين صعدت الى صديقها حاملةً صرتها ، بل شأنى أسوأ الآن من شأن ناستنكا . فصاحبك لم يكن يحب أحدا حينذاك ، أما أنت فتحبين .

ـ أصبحت لا أفهمك البتة . فيم هذه الكلمات ؟ هذه أقوال لا داعى اليها . ولماذا تقولها على هذا النحو المباغت ؟ يا رب ! ما هذه الحماقات التى أنطق بها ! ... ولكنك ...

اضطربت ناستنكا كل الاضطراب واحمرت احمرارا شديدا وخفضت عينيها .

ـ ولكن ما حيلتى يا ناستنكا ؟ أنا مذنب .. لقد أسأت استعمال الثقة التى محضتنى اياها ... لا بل لست أنا بالمذنب ... اننى أحس بذلك .

قلبي يقول انى على حق • أنا لا يمكن أن أسيء اليك فى شيء • كنت صديقك وما زلت • ألم أخن لك عهدا • انظرى يا ناستنكا : اننى أبكى أيضا • فلتنهمر دموعى • انها لا تؤذى أحدا • انها ستجف يا ناستنكا •

قالت وهى تدفعنى الى المقعد :

ـ اجلس •• اجلس •• آه ! يا رب ••

ـ لا يا ناستنكا • لن أجلس • ما ينبغى لى أن أبقى هنا • ولن ترينى بعد الآن • سأقول لك كل شيء ثم أنصرف • لو قد استطعت أن أسيطر على نفسى لما عرفتِ يوما أننى أحبك ، ولكتمت عنك سرى ، ولما عذبتك الان بأنانيتى • كنتِ أنت البادئة بالكلام ، فأنت المذنبة اذن ، ولا يمكنك أن تصدينى •••

قالت البنية المسكينة وهى تخفى اضطرابها ما وسعها ذلك :

ـ ولكننى لا أصدك ، لا •• لا ••

ـ أنت لا تطردينني • كلا • ولكننى كنت أود أن أهرب من تلقاء نفسى • على أننى سوف أنصرف بعد أن أقول لك كل شيء • اننى لم أستطع أن أحتمل رؤية دموعك منذ برهة ، وأن أطيق هذا اليأس الذى هويت اليه حين شعرت أنك محتقرة وحين أحسست أن حبك منبوذ • لقد شب فى قلبى حب كبير يا ناستنكا ، حب كبير جدا لك ، وآلمنى أن لا أستطيع شيئا • آه من هذا الحب ! ••• وتمزق قلبى ولم أطق أن أسكت ، فكان لا بد أن أتكلم ياناستنكا •

ـ نعم •• نعم •• تكلم •• تكلم •• أرجوك أن تتكلم • قد يبدو لك هذا الرجاء غريبا •• ولكن تكلم وسأشرح لك بعدئذ كل شيء •

قالت ذلك بلهجة لا أملك أن أصفها :

ـ انك تشفقين عليّ يا ناستنكا • ان شفقتك وحدها هي التي تتكلم الآن يا ناستنكا • ما وقع فقد وقع • ولا عودة الى الماضي ! هانت ذي تعرفين الان كل شيء • ولكن اصغى الى ايضا • حين كنت تبكين كنت اقدّر ـ ولكن دعيني اعبّر عن فكرتي ـ كنت أقدر انك •• كنت أحسب على نحو من الانحاء أنك أصبحت لاتحبينه ، وعندئذ (وأنا منذ يومين اثنين لا افكر الا في هذا) كان يمكن ان أفعل كل شيء في سبيل ان تحبيني • فلقد قلت انت نفسك يا ناستنكا انك تحبينني يا ناستنكا ! هأنذا قد أنهيت كلامي ، ولم يبق علي الا ان اقول ما الذي سيحدث اذا احببتني فعلا • ذلك كل ما بقي عليّ أن أقوله ولا شيء سواه • فاستمعي اليّ اذن يا صديقتي الصغيرة ـ وأنت صديقتي على كل حال : أنا رجل فقير بسيط لا قيمة له (وليس الأمر أمرَ هذا على كل حال ، ولكنني لا أستطيع أن أخرس خجلي) غير أن في وسعي ، لو قد أحببتني ، أن أحبك حباً يبلغ من القوة أن هذا الحب ما كان ليبدو لك شاقاً متعباً ، حتى ولو ظللت تفكرين في الآخر • كل ما هنالك أنك كنت ستشعرين في كل لحظة بوجود قلب معترف بالجميل ممتلىء حرارة يخفق الى جانب قلبك • آه يا ناستنكا ! آه ياناستنكا ! ماذا صنعت بي ؟

قالت ناستنكا وهي تنهض :

ـ لا تبك ! •• لا أريد أن أرى دموعك •••

ثم أضافت تقول وهي تجفف دموعها بمنديلها :

ـ تعال • تعال معي •• سأقول لك كلاما آخر •• لقد هجرني •• لقد نسيني •• ورغم أنني ما زلت أحبه فانني لا أستطيع أن أخفي ذلك ••

قل لي : لو أحببتك ••• آه يا صديقي ، يا صديقي المسكين ! ما أشد ما آذيتك في ذلك اليوم حين عبثت بعاطفتك وهنأتك على أنك لم تتوله بحبي ! يا رب ! كيف أمكن أن لا أتنبأ بهذا ؟ ••• والآن قررت أن أعترف لك بكل شيء ••

ـ اسمعي ياناستنكا • سأنصرف • انني أعذبك • هذا ضميرك يتألم منذ الآن من أنك لم تفهمي حبي • انني لا أريد أن أزيد حزنك حزنا ••• لا ، أنا المذنب يا ناستنكا ، الى اللقاء •

ـ انتظر ••• اسمع ••• هل تستطيع أن تنتظر ؟

ـ أنتظر ماذا ؟

ـ انني أحبه ، ولكن هذا الحب سينقضي ، سيزول ، بل انه ينقضي منذ الآن ••• أنا أحس ذلك ••• ومن يدري ؟ ••• فلعل هذا الحب سينتهي في هذا اليوم نفسه ، لأنني أكرهه ما دام قد احتقرني • أما أنت فقد بكيت هنا معي • ولو كنت في مكانه لما نبذتني ، لأنك تحبني حبا صادقا ، ولا كذلك هو ••• فانه لا يحبني ••• الخلاصة ••• انني أحبك ••• نعم أحبك كما تحبني ••• سبق أن قلت لك ذلك ••• أنت تعلم هذا ••• أنت خير منه ••• أنت أنبل منه •• فانه هو ••

بلغ انفعال البنية المسكينة أنها لم تستطع أن تتابع كلامها ، فألقت برأسها على كتفي ، وأجهشت باكية • واسيتها ، حاولت أن أهدئها ، ولكن محاولاتي لم تنفع • كانت ما تزال تضغط يدي ، وتقول من خلال النشيج : انتظر •• انتظر •• لقد انتهى الأمر • لايذهبن بك الظن الى أن دموعي ناشئة عن ••• لا ••• فما هي الا من الضعف ••• انتظر لقد انتهى كل شيء ••• وهدأت أخيراً ، وجففت دموعها وتابعنا طريقنا ،

وأردت أن أكلمها ، ولكنها رجتني أن أصمت لحظة أخرى . صمتنا ، فما هي الا برهة ، حتى بذلت جهدا وأخذت تتكلم . قالت بصوت ضعيف مرتعش ، ولكنه صوت يترجع فيه شيء طعن قلبي وأحدث في نفسي ألماً لذيذاً :

ـ اسمع ! لا تحسب أنني خفيفة القلب متقلبة العاطفة ! فأنا لا أستطيع أن أنسى بمثل هذه السرعة ، وأن أخون بمثل هذه السهولة .. لقد أحببته سنةً بكاملها .. ويميناً ما خنت عهده مرة ولو بالخيال ! وقد احتقر هو هذه العاطفة فله ما يشاء ، ولكنه جرحني وأذلّ قلبي فأصبحت لا أحبه .. لأنني لا أستطيع أن أرتبط الا برجل نبيل ، برجل يفهمني ، برجل شريف . هكذا خُلقت . انه غير جدير بي ، وما وقع فهو خير . فلعل آمالي كانت ستخيب حين أعرفه على حقيقته ... ولعل حبي لم يكن الا خطأ من أخطاء الحواس ووهما من أوهام الخيال . وأغلب ظني أن اسراف جدتي في مراقبتي ومحاصرتي كان هو السبب الوحيد الذي حملني على أن آخذ هذه العاطفة مأخذ الجد . ولعل واجبي كان يقضي عليّ أن أحب رجلا آخر ، رجلا آخر يشفق علي ... وأريد أن أقول لك اذا كنت تشاء رغم حبي لذلك الرجل (حبي الماضي) ... اذا كنت تعتقد أن عاطفتك تبلغ من القوة أنها تستطيع أن تنسيني الآخر ، اذا كنت لا تريد أن تتركني لمصيري محرومةً من الأمل محرومةً من العزاء ... اذا كنت تريد أن تحبني دائماً كما تحبني الآن ... فأنا أقسم لك أن امتناني ، أن حبي ، سيكون جديراً بحبك ... هل ترفض يدي ؟

فما ان سمعت هذا الكلام ، حتى صحت أقول والنشيج يهزني هزاً قوياً :

ـ ناستنكا ! ناستنكا ! آه يا ناستنكا !

قالت :

ـ كفى ! كفى ! لقــد قلت كل شيء • أليس كذلك ؟ أنت الآن سعيد ••• اذن فاعلم أننى سعيدة أيضا ••• ولا داعى الى كلمة واحـدة أخرى • اشفق على ••• تكلم فى شيء آخر ••• أرجوك •

ـ نعم يا ناستنكا ، نعم ••• أنا سعيد ••• هيَّا هيَّا ••• فلنتكلم فى شيء آخر ••• فلنسرع الى الكلام فى شيء آخر ••• أنا مستعد •••

ولكننا لم نجد أى موضوع آخر يدور عليه الحديث • كنا نضحك ونبكى ونقول كلاما لا تسلسل فيه ، نسير تارةً على الرصيف ، ثم نعود أدراجنا مرة أخرى نجتاز الشارع ، ثم نتوقف ، ثم نرجع الى النهر من جديد ، كالاطفال •••

قلت :

ـ أنا أعيش الآن وحيداً يا ناستنكا ! أما غدا ••• أنت تعلمين أننى فقير •• وأن مواردى كلها تقتصر على الفٍ ومائتى روبل فى السنة ••• ولكن لا قيمة لهذا ••

ـ حتماً ، ولجدتى معاش ••• فلن نكون فى عسر قط •• سنضم جدتى الينا •

ـ طبعاً سنضم الجدة الينا ••• وعندى ماتريونا •••

ـ نعم ونحن عندنا تكلا •

ـ ان ماتريونا فتاة طيبة ••• ولكن فيها عيباً : انها يعوزها الخيال ، ليس لها خيال البتة • هل تفهمين ؟ ولكن لا ضير فى هذا •

ـ طبعاً • ستكونان كلتاهما معنا ••• ولكن تعال الينا منذ الغد •

ـ أجيء اليكم ؟ أتمنى ذلك .. ولكن ...

ـ بل تعال ! تستأجر عندنا غرفة ... ان لدينا شقة صغيرة مؤثثة فوق .. كانت تسكنها عجوز قصيرة سافرت منذ قليل . وأنا أعلم أن جدتي تؤثر أن يكون المستأجر الجديد فتى . وحين سألتها لماذا تؤثر ذلك أجابتني بقولها : « لقد طعنت في السن يا ناستنكا ، ودلفت الى الشيخوخة ، ولكن لا يذهبنْ بك الظن أنني أريد أن أزوجك منذ الآن ... » . وأدركت أنا ...

ـ ناستنكا ! ...

وانفجرنا نضحك كلانا .

ـ هيا ! كفى ! أين تسكن أنت ؟ لقد نسيت .

ـ هناك ، قربَ جسر « ... سكوى » في منزل بارانيكوف .

ـ أهو منزل كبير ؟

ـ نعم هو منزل كبير .

ـ ها ! .. نعم .. أنا أعرف .. انه منزل جميل .. ولكن اتركه وتعال الينا بأقصى سرعة .

ـ غداً يا ناستنكا غداً . انني ما زلت مديناً لصاحبة البيت ببعض المال .. ولكن لا قيمة لهذا .. سوف اتقاضى راتبي قريباً .

ـ اسمع ، لعلني أستطيع أن أعطي دروساً ؟ أتلقى دروساً في أول الأمر ، ثم أعطي دروساً بعد ذلك .

ـ عظيم ... وسأنال أنا مكافأة في القريب يا ناستنكا ...

ـ اذن تعال غداً وستكون جاري •

ـ نعم وسنذهب الى المسرح معاً ، نسمع « حلاق اشبيلية » ••• سيمثلونها قريباً •••

قالت ضاحكة :

ـ فكرة حسنة ، أو قل سنذهب الى المسرح نسمع شيئاً آخر •••

ـ نعم نسمع شيئاً آخر ••• انك على حق ••• لم يخطر ببالى هذا ••• الافضل أن نسمع شيئاً آخر •••

كنا ونحن نتكلم هكذا نسير كلانا سيرنا في ضباب ، لا نفهم ماذا يجرى لنا • اجتزنا أحياء مجهولة ، وظللنا نمعن فى السير ثم نمعن فى السير ، نضحك ذلك الضحك نفسه ، ونذرف تلك الدموع نفسها • وأرادت ناستنكا فجأة أن تعود الى البيت ، فرافقتها ، ولكننا وجدنا نفسينا بعد ربع ساعة على رصيف النهر قرب المقعد ••• كانت تتنهد ، وكانت تنبجس من عينيها دموع • شعرت بوجل ، وتجمد قلبى ، ولكنها سرعان ما ضغطت يدى بيدها ، وجرتنى من جديد لنمشى ، لنثرثر ، لنتكلم ••

قالت :

ـ آن لنا أن ننصرف ••• لا شك أننا تأخرنا كثيراً ••• كفانا صبيانية •

ـ نعم يا ناستنكا ! ولكننى لن أستطيع أن أنام ، ولن أعود الى بيتى ••

ـ وأنا أيضاً لن أستطيع أن أنام • ليس بى نعاس ولكن رافقنى •

ـ طبعا •

ـ ذلك أنه لا بد للمرء أن يعود الى بيته .

ـ حتماً .

ـ أتقطع لى عهداً بذلك ؟ ... ان على المرء أن يعود الى بيته عاجلا أو آجلا ..

قلت ضاحكا :

ـ لك عليّ هذا العهد .

ـ اذن هيا

وسرنا . قلت :

ـ انظرى الى السماء يا ناستنكا ! سيكون الجو فى الغد جميلا .. ما أروع هذا القمر ! ما أروع هـــذه السماء الزرقاء ! انظرى الى تلك الغمامة الصفراء ! انها سوف تغشى القمر ، ولكن لا ، انها تمر قريبـــة منه . انظرى ! لماذا لا تنظرين ..

لم تنظر ناستنكا الى الغمامة بل لبثت صـــامتة ، وكأنها مسمرة فى مكانها . وما هى الا لحظة قصيرة حتى شدّت نفسها الىّ وجلةً ، وكانت يدها ترتعش فى يدى . نظرت اليها ... ازدادت التصاقاً بى .

وفى تلك اللحظة مرّ شاب قربنا ، وتوقف فجأة ، وحدّق الينا ، وأقبل نحونا بضع خطوات أخرى . ارتجف قلبى ... قلت أسأل ناستنكا بصوت خافت :

ـ من هذا يا ناستنكا ؟

فتمتمت تقول وهى تزداد اقتراباً منى :

ـ انه هو ...

أوشكت أن أسقط على الأرض ...

صاح صوت خلفنا :

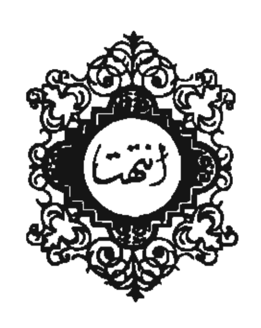
ـ ناستنكا ! ناستنكا ! أهذا أنت ؟

وفي هذه اللحظة نفسها جاء الشاب الينا ...

رباه ! يا لها من صيحة ! ماأشد ماارتجفت ناستنكا ! وانتزعت ناستنكا نفسها من بين ذراعي وهرعت اليه ... نظرت اليها مصعوقاً ، وماكادت تمد يدها اليه ، ثم تعانقه ، حتى اندفعت نحوى سريعة كالريح ، كالبرق ، ثم اذا هي ، قبل أن أثوب الى نفسي ، تمسك رأسي بيديها وتقبلني قبلة قوية . ودون أن تقول كلمة واحدة ، عادت الى الآخر ، فأمسكت ذراعه وسارت معه ...

لبثت أتابعهما بنظرى طويلا ... وما هي الا برهة حتى أصبحت لا أراهما .

الصباح



ليالىّ فى ذلك الصباح . كان النهار حزيناً .. المطر يتساقط ، ويلطم زجاج نافذتى كئيباً كآبة الحداد . الظلام يخيم فى غرفتى ، وأنا أشكو من صداع فى رأسى ، وأعانى دواراً .

قالت لى ماتريونا :

ـ رسالة لك يا مولاى جاء بها ساعى البريد .

ـ رسالة ؟ ممَّن ؟

كذلك صحت وأنا أثب من على كرسيى .

ـ لا أعرف يا مولاى . أنظر أنت ، فترى بنفسك .

ففضضت الرسالة ، انها منها :

« اصفح عنى ! أتوسل اليك راكعةً أن تصفح عنى ! لقـد خدعتك

وكنت مخدوعة عن نفسى . كان ذلك حلماً ... لشد ما تألمت من أجلك اليوم ! فاغفر لى ، اغفر لى ! ...

« لا تتهمنى ! لقد قلتُ لك اننى سأحبك . وانى لأحبك الآن حقاً. بل اننى أحبك مزيداً من الحب . رباه ! ليتنى أستطيع أن أحبكما كليكما ! لماذا لست أنت هو ؟ لماذا ليس هو أنت ؟

شقت هـــذه العبارة رأسى . « هـــذه أقوالك أنت يا ناســتنكا تعاودنى ... » .

«الله يعلم ماذا كنت أحب أن أفعل فى سبيلك ! اننى أحس كم تتألم. لقد أذللتُ عاطفتك ، ولكنك لا تجهل أن المحب ينسى الاساءة . وأنت تحب .

« وانى لأشعر نحو حبك هذا بأعمق الامتنان ، وسيظل منقــوشاً فى ذاكرتى حلماً من أجمل الاحلام ، يتذكره المرء بعد اليقظة زمناً طويلا. سأذكر دائماً تلك اللحظة التى فتحت لى فيها قلبك ، كما يفتح الأخ لأخته قلبه ، ثم قبلت قلبى الجريح لتحميه وتداويه وتشفيه ... فاذا غفرت لى، فان ذكراك ستعيش فى نفسى تجمِّلها عاطفة الامتنان الأبدى هذه التى لن تزول يوماً .. سأبقى وفية لهذه العاطفة . لا أخون قلبى قـط . فانه ثابت لا يتغير . وأنت تعلم بأية سرعة رجع هـذا القلب الى ذلك الذى امتلكه الى الأبد .

« سوف نلتقى فى المستقبل . ستجىء الينا ، ولن تهجـرنا . ستظل صديقنا دائماً . ستظل أخى ، فاذا رأيتنى ، فسوف تمد الىَّ يدك ، أليس كذلك ؟ نعم سوف تناولنى يدك لأنك قد غفرت لى ، ولست أشـك فى ذلك . انك تحبنى كما كنت تحبنى قبل الآن . آه ! أحبنى ! ولاتتركنى!

لأننى ما زلت أحبك كثيرا فى هذه اللحظة وسأكون جديرة بعاطفتك . سأكون خليقة بها يا صديقى العزيز . لقد حددنا الاسبوع المقبل موعدا لزواجنا . لقد عاد الىّ ممتلئا حبا ولم ينسنى قط ...

« لا تزعل اذا أنا حدثتك عنه ، سنجيء اليك كلانا وسوف تحبه ..

« اغفر لى وتذكرنى وأحبّ عزيزتك :

ناستنكا

قرأت الرسالة مرارا وانبجست من عينى دموع . وأفلتت الرسالة من يدى أخيراً فأغمضت عينى .

ـ مولاى ! مولاى !

كذلك قالت ماتريونا .

فسألتها :

ـ ماذا يا عجوز ؟

قالت :

ـ انظر ! لقد نزعت نسيج العنكبوت . تستطيع الآن أن تتزوج ، تستطيع أن تدعو أصدقاءك ، فالبيت نظيف .

نظرتُ الى ماتريونا . انها ما تزال عجوزاً قصيرة ، شابة ، نشيطة . ولكن نظرتها بدت لى ميتة على حين فجأة ، ورأيت فى جبينها غضونا ... وتراءت لى الغرفة كلها عجوزا هرمة مثلها ... الجدران والارض حائلة ألوانها . أنسجة العنكبوت تكاثرت . ونظرتُ من خلال النافذة فبدا لى المنزل المقابل (لا أدرى لماذا) قد دلف الى الشيخوخة وحال لونه هو

أيضاً ، وتقشرت أعمدته واسودّت أطنافه ، وتشققت ، وصارت جدرانه ضاربة الى احمرار ، بعد أن كانت صفراء قاتمة ...

فاما أن شعاعاً من شمس كان قد شق الغيوم لحظةً ثم عاد يختبىء تحت السحب المثقلة بالمطر ، فاذا كل شيء يرتد مظلماً قاتما في نظرى . واما أنني أدركتُ فى طرفة عين آفاق مستقبلى الحزين فرأيت نفسى على نحو ما أنا الآن بعد انقضاء خمسة عشر عاماً على ذلك العهد ، وقد شخت فى هذه الغرفة نفسها ، على هذه العزلة نفسها ، مع ماتريونا هذه نفسها التى لم تجعلها هذه السنون كلها أكثر رهافة .

وقد قلت لنفسى يومئذ : كفانى يا ناستنكا ! لا أريد أن أنكأ جرحى بالذكرى . لا لن أحمل غيوماً قاتمة الى سعادتك المضيئة الساجية ، لن أوقظ فى قلبك الحسرات بملامات مرة ، لا ولن أثير فيه ظلاً خفياً من عذاب الضمير . لن أضطره أن يخفق حزينا فى لحظات سعادتك وهناءتك .. لا لن أجعد الزهرات الحلوة التى ستضيفينها الى ضفائرك السود يوم تجيئين معه الى الهيكل للزفاف . لا لن أفعل هذا أبداً ! ألا فلتظل سماؤك مضيئة . ألا فلتظل بسمتك مشرقة مطمئنة ، وبوركت يا من وهبت لحظةً من هناءة وسعادة لقلبى الممتن الذى يعيش فى وحشة العزلة !

« لحظة بكاملها من سعادة ... رباه هل تحتاج حياة انسان الى أكثر من هذا ؟ » .